

أنطونيو مونيوث مولينا

رواية

في غياب بلانكا

ترجمة: أسماء جمال عبد الناصر



سرد

أشباح على الأرجح

كلمة الكاتب للترجمة العربية

أتذكّر محادثةً لي قبل سنوات مع الشاعر والناقد والمحرّر الكاتالوني المرموق كارلوس بوجول Carlos Pujol، وهو أيضاً مُترجم إلى الإسبانية للعديد من روائع الأدب الإنكليزي والفرنسي. تحدّثنا عن روايات الأشباح القصيرة لهنري جيمس Henry James، فكلانا مُغرمٌ بها كثيراً، حينذاك قال لي كارلوس: «لكن، في الواقع، كلّ الروايات روايات أشباح».

تتناول الروايات كائنات واقعية وغير واقعية على حدٍّ سواء، توجَد معنا أثناء القراءة، ولاحقاً في الذاكرة، بقوّة تجعل كثيراً منهم يبدون من لحم ودم. نحن نَقبَل أشباح الخيال وندمجها في حياتنا، وهنا يكمن بشكل غامض مدى اكتمال التجربة الروائية، وهو ما أسماه كولريدج Coleridge: «التعطيل المؤقّت للاستنكار». لا نحتاج إلى تصديق قصة خيالية. ما نفعله، بطريقة أكثر سلاسة ومفارقة، هو تعليق عدم تصديقنا، وجعل هذه الشخصيات «كما لو» كانت حقيقية، تلك القصص القادرة على طرد النوم من أعيننا في بعض الليالي كي لا نتوقّف عن القراءة. يظلّ تعليق الاستنكار أكثر أهمية في القصص التي يتداخل فيها الخيالي والغامض والمستحيل

عقلانياً. فالاستمتاع بـ«آلة الزمن» التي كتبها إتش. جي. ويلز H.G. Wells، أو «دراكولا» لبرام ستوكر Bram Stoker، يعني ضمنياً تنحية اليقين بأن السفر عبر الزمن هو استحالة جسدية، في الحالة الأولى، وأنه لا توجد كائنات بشرية تتغذّى على دماء أمثالها، في الحالة الثانية، ونتيجة لذلك يمكنهم أن يصيروا خالدين.

يتمثّل سحر الأدب والسينما في أن الكونت دراكولا يُشعرنا بالرعب الحقيقي ونحن نقرأ قصته، لدرجة أننا نقرأ بشغف لمعرفة مصير ضحاياه. فآليّة الخيال، في الأساس، هي نفسها آلية لعب الأطفال. ومن المثير للدهشة أن يتمكّن طفل أو طفلة من التمييز بين ما هو حقيقي وما هو مُبتَكر، ويقبل اللعبة على أنها مساحة تكون فيها الأشياء موجودة وغير موجودة في الوقت نفسه. فعلى سبيل المثال اعتادت حفيدتي ليونور، عندما كانت تقريباً تبلغ من العمر ثلاث سنوات، أن تلعب معي بأن تمثّل أنها ذاهبة إلى السوبر ماركت، وتحضر لي من هناك زجاجة مشروب غازي غير مرئية، وتقدّمه لي في كوب غير مرئي أيضاً، حاملةً إياه في يدها.

كقارئ وككاتب أيضاً، أكثر ما يجذبني في الأدب الخيالي هو الذي يظهر فيه الغرائبي أو المستحيل على أنه شكّ أكثر منه يقيناً بيِّناً. إن العوالم الأدبيةْ والسينمائية، التي يكون فيها كل شيء فانتازيا، تسبّب لي مللاً شديداً، ما لم تكن حكاياتٍ تقليدية، ومنها يأتي حبّي لقصص الأشباح لهنري جيمس، إذ نادراً ما نعرف علامَ نحن مقبلون، ولكن من خلالها نتفاجأ ونُكافأ بقشعريرة أبداننا. أحد الكتب التي قرأتها أكثر من مرّة في حياتي -وسأواصل قراءتها دون أدنى شك- هو «The Turn of the Screw» [دورة اللولب]. يعجبني جداً ويروقني بالقدْر نفسه الاقتباس

السينمائي له –«الأبرياء» لجاك كلايتون Jack Clayton– وأوبرا بنيامين بريتن Benjamin Britten المرعبة والجميلة. كتب هنري جيمس أكثر قصص الأشباح رعباً، لكنّنا لا نعرف حقاً ما إذا كانت موجودة – لأننا لا نعرف ما إذا كان هناك بالفعل، في المنطق الداخلي للرواية، أشباحٌ، أم هي إسقاطات لمربّية مضطربة الخيال، هي أيضاً شبحيّة للغاية، لأنها بالمناسبة ليس لها حتى اسمٌ.

في روايتي «في غياب بلانكا» –وهي قصّة حبّ لا نعرف أيضاً أهي قصة أشباح أم لا– بالطبع يأتي الإلهام الشعري من هنري جيمس، لكنني كنت حريصاً جداً على أن تكون معظم عناصر القصة متّسقة مع الواقع، حتى المبتذل منه. فبطل الرواية رجل عادي تماماً، يعمل في منصب إداري، ويعيش في عاصمة مقاطعة إسبانية صغيرة أعرفها جيّداً، لأنها قريبة جداً من مسقط رأسي، وهي أوبيدا (تقع في شمال إقليم الأندلس). لقد بنيت شخصية ماريو مستعيناً ببعض ذكريات حياتي الخاصة، ومع ذلك فهو مخلوق هجين، مثل كلّ المخلوقات الخيالية تقريباً. عملت أنا أيضاً لسنوات في مكتب، في منصب ثانوي جداً. لم أكن مُمتثلاً لدرجة ماريو، لكنني بذلت الكثير من الجهد للحصول على هذه الوظيفة، وبما أنني عشت فقيراً طوال حياتي، فقد كنت ممتنّاً للأمان المالي الذي وفّرته لي، على الرغم من تواضعها.

لكن رجلاً قدماه على الأرض مثل ماريو تحديداً باستطاعته أن يُسقط على زوجته، بلانكا، كلّ قوة التأمل الشعري التي لا يمكن لأحد أن يتوقّع امتلاكه إياها. يمكن بناء رواية –كما أشار هنري جيمس عدّة مرات– من تفاصيل دقيقة، ومقتطفات من المعلومات غير المهمّة التي تتحوّل إلى

بذور شجرة. وُلِدت «في غياب بلانكا» من تدوينة من سطرين أو ثلاثة، كنت قد قرأتها في شبابي المبكر من كتاب لجيوفاني بابيني Giovanni Papini، وهو كاتب كان يتمتّع بشعبية كبيرة في فترة مراهقتي. تظاهر بابيني بسرد حبكة قصة غير معروفة لفرانز كافكا: «يعود رجل إلى منزله، في نهاية اليوم، فيدرك أن زوجته، رغم أنها لم تتغيّر على الإطلاق، صارت أخرى مُنتحَلة».

هذه القصة المحتملة ظلّت مختزنة في مخيّلتي لعدة سنوات. هناك قصص يكتشفها المرء بغتة، وأخرى ترافقه طوال حياته، ولسببٍ ما يستغرق وقتاً طويلاً لكتابتها، وأحياناً لا تُكتب مُطلقاً. فالقصص تنضج من تلقاء نفسها في الخيال، كالبذور تحت الأرض. ذات صيف، بغتةً، قبل عشرين عاماً، رأيت ماريو وبلانكا، ورأيت شقّتهما الصغيرة في خايين، رأيتها تتجه نحوه من عمق الشقة. رأيت وسمعت: سمعت النغمة التي يجب أن تُحكى بها القصة، بمنتهى التلقائية، بشفافية سردية ونحوية مثاليّتين، رغم اكتسائها بالظلّ ذي الإيحاء الشبحي المُمَيِّز لما هو خيالي. كتبت دون أن أعرف كيف ستكون النهاية. ساعدتني زوجتي في العثور عليها. واستمتعت جدّاً بالتوصّل إلى نهاية قد تكون أو لا تكون خيالية، وقد تكون مختلفة لكلّ قارئ.

أنطونيو مونيوث مولينا

الفصل الأول

أتت المرأة التي لم تكن بلانكا من نهاية الممر باتجاه ماريو، ترتدي بلوزةً من الحرير الأخضر، وبنطال جينز وحذاء بلانكا المنخفض، ضَيّقَت عينيها قليلاً عندما اقتربت منه وابتسمت له، عيناها اللتان لهما اللون نفسه لعينَيْ بلانكا وشكلهما، ولكنهما ليستا عينيها. رحّبت به بنبرة صوت تكاد تتطابق مع نبرة بلانكا، كما لو أنها هي مَن تتحدّث إليه حقّاً. مثل بلانكا، مالت بعض الشيء عندما قبّلته، لأنها أطول قليلاً، ولكن بدلاً من إبقاء شفتيها مضغوطتين -وهي تلامس شفتيه بعجلةٍ وشرودٍ كشخص يكرّر إيماءة تافهة- فتحتهما بحثاً عن لسان ماريو، الذي باغته ذلك التدفّق العاطفي غير المُتوقّع والذي لم يستطع مجاراته في الوقت المناسب.

بدا له من أنفاسها والنعومة الخفيفة لشفتيها الليّنتين أنه يستعيد اللذّة القديمة لقبلات بلانكا الأولى، التي صارت مُفتعلةً الآن، لكنها متطابقة أيضاً، بدقّة لا تشوبها شائبة، أو تكاد، مما جعل كلّ شيء يبدو أكثر لا واقعية. قدَّر لمسة يديها الطويلتين الناعمتين، واللتين رغم ذلك لم تكونا يدَيْ بلانكا، اللفتة الغريبة وهي تعانق خَصره ساحبةً إيّاه نحو غرفة الطعام، كما لو أنه لا يعرف الشقّة التي يعيش فيها بالفعل قبل لقاء بلانكا، أو كما

لو أنّ الشقة أيضاً نسخة زائفة وإن ظلّت مُطابقة لشيءٍ مفقود: الشقّة، واللوحات الموجودة في الردهة، والأثاث في غرفة الطعام، الذي طالما انتقدته بلانكا، لم يكن ذلك دون سبب، بل لأن ذوق ماريو كان يُرثى له حينما اشتراه، مفرش المائدة الذي طرّزته والدة ماريو أو جدّته، والأواني الفخارية، والأطباق التي تتصاعد منها أبخرة الحساء المُعَدّ لتوّه، والذي قدّمته من فورها المُحتالة أو بديلة بلانكا شبه المتماثلة، بعد أن رفعته عن النار فور رؤيتها لماريو من الشرفة وهو يعبر الشارع. (لكن بلانكا الحقيقية، تلك التي يعرفها في الأوقات الأخرى، ربما لم تتطلّع قطّ من الشرفة لتراه حال وصوله). الآن رائحتها أفضل من أيّ وقت مضى، فكّر ماريو بما يشبه الندم، ولاحظ لأول مرة أنه لم يبدأ في الاستسلام، رغم أن هذه الاحتمالية ظلّت قائمة، بل أدرك بأسى وارتياح أنه لن يستطيع الاستمرار في عدائيته المُريبة، ويقظته التي لا تهدأ، وعزلته اليائسة مثل الجاسوس. على عكس بلانكا، فإنّ المرأة التي تأكل أمامه الآن لا تمسح شفتيها بطرف منديل بعد كلّ ملعقة حساء، ولا ترفع عينيها باستنكار غريزي إن أحدث أدنى صوت عند ارتشاف حسائه، كما أنها لا تنتظر في سكون من دون قول أيّ شيء حتى يدرك أن إحضار الصينية وبها الطبق الثاني وأدوات المائدة من المطبخ هو أمر متروكٌ له.

لم تشعل بلانكا سيجارتها قبل رفع المائدة قطّ، وفوق ذلك لم تكن تجلس على الأريكة لمشاهدة التلفزيون قبل أن تنظّف تماماً غرفة الطعام والمطبخ: في الواقع، قلّما تشاهد بلانكا التلفزيون، باستثناء الأخبار أو برنامج ليلي غريب يسمى متروپّوليس(*) بصوره المهتزّة وإيقاعات موسيقا

(*) متروپّوليس (Metrópolis): برنامج يُعنى بالثقافة والفن المعاصر، بدأ بثه الأول =

الميتال، ذات مرة ظهر فيه تقرير عن ذلك الرسّام الذي كانت قد انفصلت عنه لتوّها عندما قابلت ماريو.

غير عابئة ومخادعة وبهيئة بلانكا وزيّها: بلوزتها الحريرية التي لها ملمس بشرتها نفسه تقريباً، والجينز الضيّق الذي يجعلها أكثر طولاً واشتهاءً، حافية القدمين الآن، حذاء بلانكا المنخفض متروك عند قدمي الأريكة، تسترخي المرأة التي ليست بلانكا على وسادة جلدية سوداء عريضة لتشاهد التلفاز، وتدخّن سيجارة، أو تمسكها بين أصابعها ليس غير، دون أن تنتبه أنها قد تتسبّب في لسعها أو تطاير الرماد على السجادة وإتلافها ربما، ما لم ينجح ماريو في سحبها من يدها في الوقت المناسب. حدّق ماريو في قدميها بارتياب، وبحثَ كعادته عن أمارات الزيف، فوجدهما طويلتين ورشيقتين، بخطوط أوردتها الزرقاء الباهتة عند مشط القدم، وعلى الرغم من قلّة العناية بهما، فوجئ هذه المرّة بعدم وجود علامات لتشقّقات أو خشونة عند كعبيها، واكتشف أيضاً، حين ابتعد بنظره عنهما، أنها تضع طلاء أظافر أحمر، وهو اللون الذي لم يره من قبل على قدمي بلانكا. لكنه تشكّك على الفور، فلم تكن من عاداته ملاحظة هذا النوع من الفروق الطفيفة، الأمر الذي عاتبته بشأنه بلانكا ذات مرّة، لعدم انتباهه للملابس التي ترتديها، أو للتغييرات في الديكور -ليست تغييرات مُفرِطة بأيّ حال، إذ لم يكن لديهما مالٌ كافٍ لذلك- لتحسين مظهر الشقة المتواضع بها. ذلك ما ظنّه، كان متأكّداً من أن بلانكا لم تُطِل أظافر قدميها مُطلقاً: لكنّه جاهد لتذكّر ذلك، ليتيقّن من الأمر كي لا يفسح مجالاً للشكّ

= في سنة 1985، وهو مستمر إلى الآن، ويعدّ من أشهر البرامج الأوروبية وأقدمها في تخصصه. [المترجمة]

والإحباط الذي بدأ ينتابه وقتئذٍ، رغم أنه رآه لطيفاً ومثيراً للغاية في الوقت نفسه، هذا الأحمر في قدمَيْ بلانكا، وذاك الجلد الذي بات أكثر نعومةً وأقلّ تضرّراً من الأحذية، وتذكّر طريقتها في الليلة السابقة، عندما أطفأ ضوء غرفة النوم، وعانقته من الخلف وفركت قدميها الباردتين في ساقيه، طالبةً أن يدفئهما، بتواطؤ جسديّ من الممكن أن يصبح أكثر إرضاءً لولا خديعتها الواضحة، لولا الحقيقة المُرّة التي لا تنقصها الدهشة أن هذه المرأة، المماثلة لبلانكا، لم تكن هي، لا يمكن أن تكون هي.

بدت وكأنها تغفو حال رفع ماريو للطاولة، لكنها فتحت عينيها وظلّت تحدّق فيه وهو يتطلّع إليها من داخل المطبخ. لاحظ الآن فقط أنه تجرّأ على النظر إليها باهتمام وتركيز وقت انصراف نظرها عنه، بدافع من مراقبته الخرافية التي كانت عملياً عديمة الجدوى، ومُحرِجة في غالب الأمر، لأن تلك المرأة تكتشفه سريعاً وتبتسم له دائماً بشيء من الإرهاق المتسامح: الآن، على سبيل المثال، بينما يغسل الصحون ظلّ يتابعها بنظره من المطبخ، ليُميّز أنفاس صدرها صعوداً وهبوطاً، مُعتقداً أنه يسمع إيقاع تنفّسها الهادئ وسط تشويش الأخبار، فاطمأنّ لذلك. شيئاً فشيئاً، مُمسكاً في يديه خرقةً مُبلّلة لا يتذكّرها، أخذ يقترب من باب غرفة الطعام، تاركاً ركن المطبخ الذي لم تستطع رؤيته فيه، بمزيجٍ عبثيّ من الحذر والغفلة. على الأرجح أن وجهه أخذ يكتسب، مع كلّ خطوة يخطوها، هذا التعبير الخاص بشخص ينظر إلى شيءٍ مُعتقداً أنه في منأى عن الأنظار. عندئذٍ فقط فتحت عينيها، دون أدنى استغراب أو سابق إنذار، كما لو أنها سمعت خطواته أو تمكّنت من قياس مدى قُربهما من خلال تصاعد همس تنفّسه. لم يتأكّد قطّ مِن أن مَن سيلتقي بها في الدقيقة التالية هي بلانكا،

أو ما ستكون عليه حالتها المزاجية: فبلانكا يمكنها تخمين كلّ شيء عنه دون الحاجة إلى أن تفتح عينيها، لكن هذه الثقة لم يَبدُ أنها ستتحوّل إلى استهانة وإهمال غريزي وخطير لشخصٍ اعتاد على اعتبار ولاء الحبيب أمراً مفروغاً منه.

توقّفت نظرة العينين، اللتين لم تُرَ من خلالهما حدقتا بلانكا، على الخرقة المبلّلة التي لا يزال مُمسكاً بها، ثم ارتفعت حتى لاقت نظرته الهاربة واستبقتها. عينا بلانكا العسليّتان، وشعر بلانكا الأسود الناعم، والنمش الخفيف على أنفها، والورديّ الصارخ لشفتيها، وخواتم بلانكا التي ترتديها في الأصابع نفسها، وخاتم زواجها الذي رغب في فحصه عن قرب للتأكّد من انضباط تزييف كل شيء، لدرجة أن المحفور عليه هو تاريخ مقابلتهما الأولى، وليس تاريخ زفافهما، لأنهما اتفقا -على الرغم من أنها فكرة بلانكا- أن ما يستحقّ إحياء ذكراه ليس توثيق حفل الزفاف، بل هذا المزيج النادر للمصادفة والقدرية للقائهما الأول.

اقترب منها ماريو، ورآها تنكمش على الأريكة، ثم تفرد ذراعيها مُستمتعةً بالكسل، الآن بشَعر طليق، ووجهٍ ناعس يتوق للقيلولة، وقميص شبه مفتوح بالكامل، مُظهِراً النسيج الحريري لحمّالة صدرها، الشقّ الحلو لثدييها المضمومين اللذين يشبهان إلى حدٍّ كبير ثديي بلانكا، على الرغم من أنه لم يعد يدري أيضاً ما إن كان شكل حلمتيها الوردتين ولونهما مماثلاً لما يتذكّره. سمعها تقول اسمه بصوت بلانكا، بات صوتها أكثر دفئاً من أيّ وقتٍ مضى، دون مسحة البُعد والبرودة الشفيفة التي طالما رفض تقبّل وجودها، تماماً كما رفض أن يرى ويسمع ويفهم أشياء كثيرة، الكثير من الكذبات التافهة، والكثير من الخيانات المسكوت عنها. خطا خطوةً

أخرى، ووضع الخرقة على المنضدة، خوفاً من بقاء رائحة المنظّفات أو الدهون في يديه، جثا على ركبتيه بجوار الأريكة، بجانب المرأة التي احتفظت أنفاسها بسِماتٍ تختلف عن أنفاس بلانكا المُفتَقدة والمرغوبة، وعن المذاق الريّان لفم بلانكا. فوجئ، وهو يميل عليها، باستعادة الإثارة والتحرّر غير المتوقّع من الحنين، وإن لم يخلُ من الشكّ. أدرك أنه تعلّم التظاهر أيضاً، وحاول تبرير ذلك قائلاً لنفسه -بينما يزيح شعرها عن وجهها مُقبِّلاً جفنيها وقاضماً بشفتيه فقط شحمة أُذنها التي قد تكون أكثر امتلاءً من شحمة أُذن بلانكا- إنّ تعلُّم المحاكاة سيساعده على اكتشاف الكذبة، لا على استساغتها. لكن الحقيقة أنه بينما أخذ يُداعبها ويُقبّلها ويفكّ كلّ أزرار قميصها الحريري الأخضر، أغمض عينيه بإحكام وبذلك تأكّد للحظات من أنه يداعب بلانكا ويُقبّلها، وتعرّف عليها في الظلام الاختياري بيقينٍ لم يكن بوسع عقله ولا حواسه منحه إيّاه.

الفصل الثاني

لا يذهب ماريو لوپِث مُطلقاً لشرب البيرة مع زملائه بعد العمل. ولا يرجع هذا إلى أنه غير اجتماعي بأيّ حال، فهو يتفاخر بعدم إساءته لأيّ شخص في المكتب، ولكن كلّ يوم في الثالثة إلا عشر دقائق، عندما يُغادر الموظّفون مجلس المقاطعة ويتفرّقون في مجموعات صاخبة متلهّفة إلى الحانات القريبة، يختلق عُذراً أو يُلوّح مُودّعاً ببساطة وحماس، ويُسرع الخُطا للعودة إلى المنزل في أقلّ وقت، مما يضمن ألّا تكون الساعة قد تجاوزت الثالثة بأكثر من خمس دقائق أو عشر، في اللحظة التي يفتح فيها الباب وينادي على بلانكا.

الطمع الوحيد الذي يمكن أن يرتضيه في نفسه هو في الوقت الذي يمضيه معها: فإن كان يكرّس سبع ساعات من حياته يوميّاً لعمله الإداري، ويُخصّص سبع ساعات أخرى للنوم، فإن أيّ إهمال في الاستفادة من الساعات العشر المُتبقية لديه في شيءٍ سوى حياته مع بلانكا سيصير ذنباً وهدراً للوقت وبتراً يوميّاً لأحد أسباب سعادته. لم يفقد شهيّته التي لا تُشبع أبداً للبقاء معها، وقد اختبرها في أيامهما الأولى، عندما كانا يقضيان

وقت بعد الظهيرة معاً أو يذهبان لتناول العشاء، ثم لا يعاودان اللقاء لمدة أسبوع أو أسبوعين، وكان حينئذٍ لا يجرؤ على الاتصال بها بشكل يومي مخافة أن يُثقل عليها.

لم تُفتِر سنوات الزواج من دهشة وجودها الدائم إلى جانبه، لساعات وأيام وأسابيع وشهور، رأسمال زمني لم يحلم قطّ بامتلاكه، مما دفعه للاعتقاد بأن استمراريته معه طوال هذه الفترة قد يكون لأنه لا ينفد. أحياناً بمجرّد فتح باب الشقة، يستقبل المفردات المألوفة لحياتهما المنزلية وحضور بلانكا المعتاد والمُراد دائماً كعلامات ترحاب بقدومه: رائحة الحساء، وضجيج الأطباق وأدوات المائدة التي تضعها بلانكا على الطاولة، وربما الموسيقا الافتتاحية للأخبار، الأيام ذات السرعة الاستثنائية التي يصل فيها في الثالثة بالضبط، حينما لا تُعطّله التزامات طارئة في لحظاته الأخيرة بالمكتب أو لقاءات غير مُستحبّة في الشارع. لكن في أوقات أخرى يفتح الباب فلا يسمع ولا يشمّ أيّ شيء، ولجزء من الثانية، وهو لا يزال في الممرّ، وسلسلة المفاتيح في يده، وقتئذٍ يعاني من رعبٍ شديد لا مُبرّر لصحّته: ربما اضطرّت بلانكا إلى مغادرة المنزل دون أن تتمكّن من إخباره لترى والدتها التي تحتضر، وربما تعرّضت بلانكا لحادث في الشارع، أو أنّ بلانكا هجرته. لكن الأمر لا يتجاوز ثانية أو ثانيتين: يناديها فيسمع صوتها من داخل الشقة، خلف باب الحمّام المُغلق، أو أنها ببساطة شاردة في المكتب، أو أنها مُنغمسة للغاية في قراءة كتاب أو مع إذاعة الراديو الكلاسيكي(*) ولم تسمع المفتاح. يستمع أولاً إلى صوت

(*) إذاعة الراديو الكلاسيكي (Radio Clásica): محطة إذاعية إسبانية متخصصة في الطرب تأسست سنة 1965، وهي جزء من هيئة البثّ العام الإسبانية المملوكة للدولة. [م]

كعبها، ثم يراها قادمة من داخل الممرّ، فيشعر وكأنّ بلانكا عائدة من مكان بعيد جدّاً، من قبوٍ سرّيّ أو سرداب لم يكن يعلم بوجوده، ولن يُسمَح له مُطلقاً بمرافقتها داخله. شعر بالشيء نفسه في المرّات التي اتصل بها وقت الضحى من العمل: تبدأ الرنّات الأولى فينتفض ماريو خوفاً من عدم وجودها؛ يسمع صوتها فيجده لشخص يجلس بمفرده، تائهاً في الأفكار أو في غرف لا يعرف أحدٌ عنها شيئاً. لكن بلانكا تتمتع بمقدرة عجيبة على الانغماس داخل ذاتها، والغياب التام عن العالم الخارجي أثناء قراءة كتاب أو الاستماع إلى الموسيقا أو مشاهدة فيلم. كان تركيزها مُطلقاً، تعلّم ماريو ألّا يقاطعها خلاله أبداً، وقد دلَّ هذا التركيز على حساسية أذهلته وفي الوقت نفسه جعلته يشعر بضآلته مقارنةً بها، وبأنه مهجور بشدة في بعض الأحيان، عندما يريد إخبار بلانكا أو سؤالها عن شيءٍ ما، يَحدُس أنّ الأمر لا يستحقّ الجهد، لا لأنها ستتجاهله، لكن لأنها حرفيّاً لم تكن موجودة، تصير مأخوذة، كما قيل في الماضي، بالمعنى الدقيق للكلمة، مأخوذة من واقع طالما تسبّب في مللها أو اشمئزازها. في المكتب، يسخر الزملاء من ماريو لسرعة رجوعه إلى المنزل. وقد خمّنوا، إما أنّ بلانكا تُحكم قبضتها عليه، وإما أنّ أحدهما لا يستطيع الاستغناء عن الآخر، لأنهما بعد عدّة سنوات من الزواج لا يزالان يتصرّفان مثل حديثي الزواج. وهذا التخمين الأخير أشعر ماريو بالفخر، حسناً فتخمينهم صائب، لكنه إن لم يؤيد النكات والإيحاءات الجنسية التي يشرع فيها رفاقه، فالأمر يرجع لتحفّظه المقدّس النابع من الحياء. فحياته مع بلانكا أثمن بكثير من أن يسمح بتدخّلٍ أو بتعليقات من أيّ شخص، وإن كان أقرب الأصدقاء، الأصدقاء الذين يفتقر إلى وجودهم حقاً. وقاحة اللغة الجنسية التي تُسمَع

في المكتب في عدم وجود النساء، والأسوأ منها، في محادثات البار وقت شرب البيرة، ذكّرت ماريو بالمُحادثات داخل الثكنات العسكرية، بوحشيّتها الموجّهة دوماً للإساءة للنساء، وبصفة خاصة لتلك التي تهمّه أكثر من غيرها، امرأته.

كان هذا سبباً آخر لندرة ذهابه لشرب البيرة بعد العمل: حينئذٍ يظلّ صامتاً، وهو أمر مُحرِجٌ للغاية في بعض الأحاديث، لا يقدر على إظهار الاهتمام بقصص الخيانات التي يرويها آخرون، ولا ينضمّ إلى الشكاوى الشائعة والمُعتادة حول الحياة الزوجية، لا يشعر بمتعة إلقاء النكات، يزعجه دخّان السجائر، تصيبه الجعة بالدوار ويملّ من المناقشات السياسية. في الأوقات التي لم يكن لديه فيها خيار سوى الانضمام إلى احتفالات الشركة -عشيّة عيد الميلاد، أو في عيد ميلاد أحد الرؤساء الذي يدعوهم لتناول بعض المقبّلات- يُمضي الوقت ناظراً بترقّب إلى الساعة، مُتصنّعاً الضحك بصوتٍ عالٍ مثل الآخرين، يُرهقه الاستماع إلى قصص لا تدخل في إطار اهتماماته، ونكاتٍ بذيئة وقديمة تعود لما قبل مراهقته. وبعد مرور ما يظنه وقتاً معقولاً وشرب قليل من البيرة، أو عدة كؤوس من النبيذ، يخترع ذريعة عاجلة ويغادر الجمع، ليس من دون أن يلقي أحدهم تعليقاً مضحكاً معتاداً، حول سرعته في الرجوع إلى المنزل، للتوقيع في موعده، كما يقولون له، بانضباطٍ يفوق التزامه بمواعيد العمل في المكتب.

لم يكترث ماريو لذلك. أخذ يستنشق هواء الشارع بارتياح ويسير إلى المنزل بخفّةٍ وفرح، رغم شعوره القويّ بالإنهاك، وكأنه استهلك كلّ طاقته في تحرير نفسه من جسمٍ لزج. يا لها من مضيعة للوقت عدم وجوده الدائم معها، ألّا يكون إلى جوارها وألّا يتمكّن من النظر إليها، حتى وإن

بدت منغمسة في أشيائها! يا لها من صحراء لا تُطاق في العمل بمجلس المقاطعة والحياة في خايين(*) إن لم تكن فيها، إن لم تُغرم بماريو وتقرّر الزواج منه عكس كلّ التوقّعات، في واحدة من لحظات جُموحها التي تعدّ الجزء الأكثر جاذبية في شخصيتها، والأكثر رعباً في بعض الأحيان!

اعتادت بلانكا القول إنّ حياتهما تخلو من التجارب العظيمة، وهو يوافقها في ذلك، لكنه اعتقد أيضاً في أفضل أيامه، عندما كان يعود إلى المنزل قبل الساعة الثالثة بدقائق دون أن يصادف أيّ منغّصات في العمل، أنه ليست هناك تجربة أعظم من المشي في الشوارع المعتادة إلى منزله، وهو يعرف تميّزه عن كلّ الرجال الذين يمرّون بجواره -مَن يشربون في الحانات ويتحدّثون عن كرة القدم والسجائر في أفواههم، مَن يستديرون بوجوه جائعة عند مرور امرأة أمامهم- برغبته في زوجته التي تفوق عنده كلّ النساء، وبشعوره بالأمان المطلق حين يفتح باب بيته فيجدها.

صحيح أنهما يعيشان في خايين، وأنها ليست تحديداً مركز العالم في ما يتعلّق بالأنشطة الثقافية، وليس لأيٍّ منهما وظيفة مثيرة -في الواقع أمضت بلانكا مواسم كاملة بلا عمل- لكن هذه القيود لم تشغل ماريو بالقدر الذي يتحدّث هو نفسه عنها، وعلى كلّ حال، عوضاً عن ذلك لديهما الكثير من الظروف المواتية والتي من الحماقة التقليل من شأنها في رأيه: لديهما شقّة جيّدة، في الطابق السابع تطلّ شرفتها على الغران إيخه(**)، اشتراها ماريو بسعر ممتاز قبل حُمّى أسعار العقارات في أواخر الثمانينيات؛ في أوقات

(*) خايين (Jaén): مدينة وعاصمة مقاطعة تقع في جنوب إسبانيا وفي الشمال الغربي من منطقة أندلوثيا واسمها العربي جيان. [م]

(**) Gran Eje: أحد الشوارع الرئيسية في المدينة ويُعرف الآن باسم Avenida de Andalucía. [م]

الأزمات الاقتصادية وانعدام الأمن، حظي ماريو بوظيفة دائمة وراتب ليس كبيراً إلا أنه يكفيهما حتى نهاية الشهر، وكذلك مواعيد العمل، من الثامنة إلى الثالثة، تسمح له بالقيام بأعمال أخرى في فترة ما بعد الظهيرة، على الرغم من أنه ليس من هواة الخروج من المنزل. وظلَّ هدفه لفترةٍ ما الالتحاق بالجامعة: كان رسّاماً هندسياً لكنه لم يتنازل عن رغبته في أن يصبح مهندساً معمارياً، أو بالأحرى لم تتنازل بلانكا عنها، لأن الوظيفة التي أحبها أكثر من غيرها هي فنّي حساب الكمّيّات، وهو ما يُسمى الآن في إسبانيا العمارة التقنية، وهو المصطلح المفضّل لبلانكا. في بعض الأحيان، أثناء وجودهما مع أصدقائها، تقول بلانكا كلاماً غامضاً عن وظيفة زوجها. تتجنّب ذكر اسم مهنته كرسّام هندسيّ، لكن الكلمة التي لا تطيق نطقها على الإطلاق هي موظّف. فللإشارة إلى أكثر الأشخاص الذين تكرههم، الروتينيّين، وذوي الإيقاع الرتيب، والمُفتقِدين للمُخيّلة تقول: «هم موظّفون بيروقراطيّون».

لم يمضِ وقت طويل بعد ذلك حتى بدأ ماريو لوبِث يتساءل بأسى عمّا إذا جرى إدراجه في فئة الفاشلين من الموظّفين البيروقراطيّين، وما إذا كانت بلانكا قد استثنته من حشد السوقيّين، والأثرياء، أولئك المُملّين بسبب روتين الزواج والعمل.

قبل أيام من حدوث ذلك، في أحد أيام الاثنين من شهر حزيران، عاد إلى المنزل في الثالثة ودقيقتين، بالضبط بعد اثنتي عشرة دقيقة من خروجه من المكتب، وأثناء سيره المعتاد مستمتعاً بنسيم صحّي، مالح، شبه بحري، له رائحة المطر، استثنائي في تلك الفترة من العام وفي تلك المدينة الجافة للغاية، نسيم يهزّ المظلّات القماشية للمباني ويُحيي الرغبة في الحياة على

أكمل وجه، وبمجرّد أن فتح الباب، استقبل بامتنان وفرح الروائح اليومية لمنزله: رائحة التنظيف، والأثاث المشمّع، والطعام الذي أعدّته بلانكا للتوّ.

بعد ستّ سنوات من لقائهما، كان لا يزال يتأثّر في كلّ مرّة يقترب منها. وفي الوقت نفسه الذي ناداها فيه للمرة الثانية رآها قادمة من الغرف الداخلية. علم على الفور أنها في حالة مزاجية جيّدة وأنها ستعطيه فمها عندما يقبّلها، وهو ما لا يتكرّر كثيراً. وضع حقيبته على الأرض كي يتمكّن من عناقها، وحين نظر عن كثب إلى ملامحها المُحبّبة إليه، تذكّر أحد نقاشاته النادرة معها. حين اتهمته بلانكا، بلا تفكير -في خضمّ شجار أذكاه هو أيضاً، وظلَّ أسابيع بعده نادماً بمرارة شديدة- بالرضا بأقل القليل، وبافتقاره -كما قالت له- «إلى أدنى طموح». ردَّ ماريو، بهدوء مفاجئ، بأنها هي، بلانكا، أسمى طموحاته، وأنه اكتفى بوجودها معه، ولم يعد يعرف أو يطمح إلى ما سواها. نظرت إليه بجدّية شديدة، وأمالت رأسها، واغرورقت عيناها بالدموع، وخطت خطوة نحوه وسقط كلٌّ منهما في ذراعي الآخر، ثم على الأريكة، في قبلاتٍ لاهثة باحثين عن جسديهما تحت الملابس، متغاضيَين عن صوت التلفاز، يبثّ الموسيقا الافتتاحية العالية لبرنامج إخباري.

الفصل الثالث

الآن أيضاً عاد بثّ نشرة الأخبار عندما بدأا في تناول الطعام، فقد وصل ماريو مبكراً لدرجة أن فقرة الأخبار المحليّة لم تكن قد انتهت بعد. تذوّق شوربة الڤيشيسواز(*) بحماس، وهي من أفضل الأطباق التي تعدّها بلانكا، أثناء ذلك، حدّقت فيه والملعقة ثابتة بجانب فمها، في لفتة لم يعرف منها أهي تلطُّفٌ أم توبيخ. خاف أن يكون قد أصدر صوتاً عند ارتشافه، وأخذ الملعقة التالية بتركيز مُطلق، ضاغطاً على شفتيه بصمت، وابتلع خلسة، ثم مسح فمه على الفور بحافة منديله.

بلانكا رفيقة طعام تلتزم بآداب المائدة بصورة مثالية؛ تحافظ على استقامة ظهرها دوماً، وترفع منديلها من حجرها قبل النهوض، وفي طريقة تقشيرها لبرتقالة أو لثمرة كاكا بالشوكة والسكين إتقانٌ -بالنسبة لماريو الذي عمل خادمَ مذبح كنيسة في صباه- به شيءٌ من الطقس الديني، الذي يُحيي داخله عُقدة الدونية الاجتماعية القديمة. فماريو يقشّر البرتقال بيده،

(*) شوربة الڤيشيسواز (vichyssoise): شوربة كْريما فرنسية الأصل قوامها البطاطس والكرّاث والقشدة، وتُقدّم باردة عادة. [م]

ضاغطاً بإبهامه أولاً داخل القشرة، وعندما تعجبه صلصة أو تتبيلة سلطة معيّنة، عليه أن يكبح نفسه من أن يغمس الحساء بالخبز.

يتذكّر جيّداً أول مرة حاول فيها استخدام الشوكة والسكين في حياته، حين نما إلى علمه أنهما يُستخدمان معاً لتناول الطعام. (في منزل والديه، يأكل دائماً بالملعقة، أما شرائح الأرنب مع الأرز فاعتادوا تناولها بأيديهم أيام الآحاد). كان ذلك في مقصف محطة الحافلات القديمة في خايين، خلال رحلة قام بها في ذلك الحين من البلدة مع والده، لأسباب طبّية أو لإنجاز معاملةٍ ما. ففي طفولة ماريو، أخافته خايين كثيراً، ذكّرته بالخطر وبرائحة المرض، أو بمكتب قذر يستبقي فيه الموظّفون العدائيون ماريو ووالده، الذي عند تحدّثه معهم -وهو مَن اعتاده رجلاً قوياً- يخفض صوته ويطأطئ رأسه. جلس الاثنان كلٌّ منهما على كرسيٍّ عالٍ بمشرَب البار، وقُدِّم لهما طبقٌ متعدّد الأصناف بدا له قمة الرفاهية، بيضتان مقليتان مع البطاطس وقطعة لحم خنزير. قطّع كسرة خبز بيديه وبدأ في غمسها في البيض، ثم أراد أن يأكل الشريحة بالطريقة التي يأكلون بها شرائح لحم الخنزير المقدّدة المشوية في الغداء الريفيّ: بفردها على الخبز، وتقطيعها بالسكّين. لكن والده أخبره أنهما في العاصمة، وفي مكان محترم، وأن عليه الانتباه لكون الجميع حوله يأكلون بالشوكة والسكين، وأضاف ببعض السخرية: «إذا أردت إكمال تعليمك فعليك أن تبدأ في التصرّف برقيّ أكثر وفي تقليد السادة في آداب المائدة».

لاحظ ماريو، الذي سريعاً ما يحمرّ خجلاً منذ طفولته، أنّ الشعور بالتهكّم يحرق وجهه، وأمام نظرات والده الساخرة، مُسترقاً النظر إلى زبونٍ آخر يجلس بجانبهما، حاول معرفة أيّ اليدين تُمسك بالشوكة وأيهما

بالسكّين، لكنه لم يفلح حتى في قَطع شريحة اللحم، وعندما أراد أن يضع بعض البيض الذي ثبّته بالشوكة في فمه، انتهى به الأمر إلى تلطيخ سرواله الذي تخصّصه والدته للحفلات الكنسية والرحلات.

يا لها من حياة قاتمة للغاية تلك التي عاشها، هكذا فكّر، كي يبدو له مقصف محطة حافلات خايين مكاناً فخماً! شرح هذه الأشياء لبلانكا فشرعت في الضحك، لم يدرِ أكان تأثّراً بفظاظة ماضي ماريو، المختلف جدّاً عن طفولتها، أم أنها ببساطة مندهشة من وجود نمط حياة فريد، لكنه في النهاية مثير للسخرية بالنسبة إلى شخص مُتحضّر معنيٍّ بشؤونه الخاصة. والغريب أن بلانكا كانت أكثر منه انحيازاً لليسار، رغم الطبقة الاجتماعية التي تنتمي لها ومعرفتها الضئيلة عن الحياة الحقيقية للفقراء والعمّال. ففي عام 1986، تسبّب الاستفتاء على انضمام إسبانيا إلى حِلف الناتو في إثارة إحدى المناقشات المريرة القليلة التي دارت منذ تعارفهما، بدا لماريو أنه من الحكمة والعقل التصويت بنعم، بينما ارتدت بلانكا شارة «لا» واضحة على صدر سترتها، وجمعت التوقيعات، وحضرت اجتماعات، ومشت في مسيرات، وشاركت في مظاهرات مع أشخاص من صنف سياسي يمقته ماريو، متطرّفون يساريون يدافعون في الوقت نفسه عن السلام ونزع السلاح وعن العمليات الإرهابية في الشمال. ولكنه عندما رأى مدى حزنها وإحباطها ليلة إعلان النتائج، لم يستطع الابتهاج بفوز فريقه. بل شعر بالذنب وبقليل من الرجعية أيضاً.

وبينما يحتسيان الڤيشيسواز بدأت بلانكا تشرح لماريو شيئاً عن مشروع ثقافي قد يوفّر لها عملاً بسيطاً -مترجمةً ربما، أو مصمّمة أزياء- لكنه لم يُعِر ما تقوله الكثير من الاهتمام، رغم تظاهره بالإنصات التام. ما يهمّه

حقّاً، ويبقيه مُستغرقاً في التأمل، لم تكن تطلّعات بلانكا المهنية الغامضة، والتي غالباً ما تنتهي إلى لا شيء، لكنه حضورها اليومي المُعجِز، وصوتها الأخنف نوعاً ما، والطريقة التي تحرّك بها شفتيها، وشدّة تركيزها وجدّية نظرتها إليه بينما تتحدّث عن شخص يبدو مشهوراً جداً وصل لتوّه إلى المدينة، وستتاح لهما في القريب العاجل فرصة التعرّف عليه، اسمه بدا مألوفاً لماريو: لويس أُونّسيمو، لكنه لم يرغب في طرح أسئلة أكثر تفصيلاً مخافة أن يبدو لها جاهلاً، كما أنه سمع شيئاً من التلفزيون شتّته تماماً، أو بالأحرى جعله على أهبة الاستعداد.

كان مذيع الأخبار يتحدّث عن معرض فريدا كالو(*) الذي افتُتح للتوّ في مدريد. قبل ذلك بأيام، عند قراءتها الإعلان المُسبَق عن إقامة المعرض في الجريدة، أصرّت بلانكا بشدّة على وجوب سفرهما إلى مدريد لرؤيته؛ فهو مناسبة فريدة، واستثنائية لن تتكرّر في حياتهما. لكنه ذكّرها بأسف وتأنيب ضمير بأنهما على مشارف نهاية الشهر، وأن نفقات الرحلة والفندق ومطاعم مدريد ستتجاوز ميزانيتهما. كما أخبرها على سبيل التهدئة، رغم علمه بعدم جدوى ذلك، أنّ المعرض سيستمر بلا شك لعدّة أشهر، وأنه من الأفضل أن ينتظرا العطلة السنوية، لأن هذه الفترة من العام هي الأكثر ازدحاماً في عمله بالمكتب. وأن ما يودّ فعله بعد ظُهر يوم الجمعة بعد عودته من العمل هو البقاء في المنزل للاسترخاء، وليس القيام برحلة مُرهِقة إلى مدريد، والعودة يوم الأحد، كما حدث من قبل، على متن القطار الليليّ السريع، الذي يصل إلى خايين في السابعة صباح الاثنين، مما يعني أنه سيتوجّه مباشرة إلى المكتب من المحطة، دون أن يتسنّى له الاستحمام.

(*) Frida Kahlo (1907–1954): رسّامة مكسيكية شهيرة. [م]

لم تقل بلانكا شيئاً، خفضت رأسها، وبمجرّد انتهائهما من تناول الطعام وتنظيف الطاولة، انغلقت على نفسها في غرفتها، على الرغم من أن وجهها لم يَبدُ صارماً جاداً، بل إنه مجرّد شعور داخلي بالإحباط تعلّم ماريو التعرّف عليه من زَمّةٍ طفيفة تتشكّل على جانب فمها عند محاولتها الابتسام دون رغبة، لا تفعل ذلك سوى بدافع التأدّب، أو المُجاملة، أو حتى لسببٍ آخر، وهذه إشارة لتخبره أن يتركها وشأنها، وأن الأمر لا يستحقّ الجدال أو قول أيّ شيء.

طَرَق ماريو الباب بهدوء شاعراً بالذنب والخجل والخوف من فقدانها، ولمّا لم يسمع شيئاً سوى موسيقا الراديو، فتح الباب بحذر، فرأى بلانكا مستلقية في الظلام على الأريكة، في الغرفة الدافئة الصغيرة التي تلوذ بها، رغم أنها تطلّ على باحة مضيئة وحبال غسيل المطابخ، وتصل إليها دائماً أصوات الجوار، وضوضاء أجهزة التلفزة وصرخات الأطفال، فلا تستطيع بلانكا التركيز. لديها مكتبٌ عتيق، هديّة من والدتها، بأدراج صغيرة تُقفلها بالمفتاح، ولطالما تمنّى أن يفتحها. هناك تصطفّ دوماً أقلام الحبر والرصاص الخاصة ببلانكا، ومحابر بمدادها البنّي الداكن، ودفاترها حيث تدوّن الملاحظات، وتنسخ القصائد أو العبارات وتُلصق القصاصات، وأوراق مراسلاتها وظُروفها الأرجوانية، التي تحمل اسمها مطبوعاً، الاسم الذي يسعد ماريو لمجرّد رؤيته مكتوباً.

جلس على حافة الأريكة بجانبها، مرّر يده على شعرها المسترسل، وعلى عظام وجنتيها المبلّلتين إثر البكاء الصامت، اعتذر لها، واعترف بأنانيته، وأخبرها أنها إن أرادت فبإمكانهما الذهاب إلى مدريد في نهاية هذا الأسبوع. طلبت منه بلانكا بصوتٍ خفيض أن يتركها بمفردها، كما

اعتذرت له، وألقت باللوم على فتور همّتها، وحالتها المزاجية، وعلى حرارة الجوّ التي بدأت بالفعل ترتفع بشدة في المدينة، وعلى الظرف المزعج الذي تجد نفسها فيه دوماً في بداية دورتها الشهرية التي أتت للتوّ. جلست مشعّثة الشعر، وفكّر ماريو بحزن وخوف أن وجهها بات يحمل ملامح الغياب والإرهاق نفسها كما كانت في أيامهما الأولى، عندما أدرك أنه يحبّها بالفعل، ولم يخطر بباله أن بلانكا ستوليه يوماً ما الاهتمام الكافي لمجرّد أن تلحظ وجوده بصورة كاملة، لا أن تبادله المشاعر.

بعد أربع وعشرين ساعة، عندما شعر ماريو أن الأزمة قد مرّت، وبينما كان يولي ظهره إلى التلفزيون مُبتلعاً في صمت ملعقةً من شوربة الڤيشيسواز اللذيذة، اختلس النظر إلى وجه بلانكا في انتظار أمارات الحماس والمرارة اللاحقة التي سيوقظها بداخلها اسم فريدا كالو: سترى إحدى لوحاتها على الشاشة، واحدة من تلك الصور الذاتية التي يعتبرها ماريو شنيعة، سرّاً، ربما ستندم أنها لا تعيش في مدريد، ولا تملك لا الوقت ولا المال للسفر إلى أيّ مكان تريده، بل من المحتمل أن تتوقّف عن تناول الطعام، أو أن تتوقّف عن الحديث معه، مُنسحبة إلى الصمت وإلى غرفة لن يُسمح له بدخولها أبداً، لتكتب لساعات في أحد تلك الدفاتر التي تُغلق عليها بالمفتاح.

تكرّر اسم فريدا كالو مرّتين أو ثلاثاً، وفي كلّ مرّة يخشى ماريو ردّة فعل بلانكا الحتمية، كمَن يرى برقاً وينتظر ويحسب الثواني التي يستغرقها صوت الرعد. لكن المذيع واصل نشرته بتقديم خبر رياضي، وظلّت بلانكا تُحدّثه عن الوظيفة المحتملة التي لم يفهم تماماً علامَ تنطوي، لكنه شجّعها بحرارة على متابعتها؛ ليته أولى الأمر مزيداً من الاهتمام، ليت هوسه بالمراقبة لم يخنه، وحال دون إدراكه الخطر الجديد، الاسم الجديد الذي بدأ يتكرّر في أحاديثها.

اعتقد -لكنه لم يقدر على إخبارها بذلك- أن ما تحتاجه بلانكا هو التأهّل لاختباراتٍ معيّنة والالتحاق بوظيفة ثابتة، وتكريس نفسها لعمل مستمرّ وملموس من شأنه إخراجها من أحلام يقظتها، أو على الأقل تثبيت مرساتها في الواقع. ربما عدم اهتمامها بأخبار معرض فريدا كالو هو إشارة جيّدة: أتمنّى أن تتغيّر، ولكن ليس كثيراً، تتغيّر بعض الشيء فحسب، فقط بما يكفي كي لا تُكثر من فترات صمتها وانغلاقها على نفسها، ولتتوقّف عن الرفض الصريح والعدائي لفكرة إنجاب طفل. إذ كانت تقول: «لا أظن أن لدينا الحقّ في جلب أيّ شخص إلى هذا العالم المُروِّع».

ربما يعتبرها آخرون امرأة متقلّبة، أما بالنسبة لماريو فإن شروع بلانكا في أعمال مختلفة وما أظهرته من حماسة متباينة تجاهها ما هو إلا دليل على حيويتها وإقدامها وتمرّدها الغريزي، وهذه الصفات هي أكثر ما أثار إعجابه نظراً لافتقاره الشديد لها. فهو قد أتى إلى خايين من بلدته كابرا دي سانتوكريستو -بصعوبات مريرة عن طريق منح دراسية ضئيلة دوماً، ليقضي الشتاءات الحزينة لآخر سنوات طفولته مُقيماً في بنسيونات متواضعة- للالتحاق بدراسته الثانوية، التي أنهاها بدرجات ممتازة في تلك الأيام حين كان نظام التحسين(*) ما يزال سارياً، وبعد ذلك، لتخوّفه من طول المسيرة المهنية لفنّي حساب الكمّيّات وصعوبتها، رغم شغفه بها، اختار أن يصبح رسّاماً هندسيّاً. ولأنها تصغره بستّ سنوات، ووُلِدَت في طبقة اجتماعية أخرى وترعرعت خلال أيام التلفزيون الملوّن وأنواع لبن الزبادي المختلفة وقضاء العطلات على الشواطئ، فلدى بلانكا فكرة

(*) يمكّن «نظام التحسين» الطالبَ في الثانوية العامة من إعادة الامتحان في بعض المواد التي نجح فيها، من أجل تحسين المعدّل العام. [م]

أقلّ تطهُّريّة عن العالم؛ فلم تُلقَّن المبدأين اللذين أظلما أفق طفولة كلّ ذكور الجيل وطبقة الفلّاحين التي ينتمي إليها ماريو، أنهم حينما وُلِدوا أتوا إلى وادي الدموع، وأن عليهم كسب عيشهم بعرق جبينهم.

تتحدر بلانكا من عائلة ثريّة من المحامين وكَتبة العدل وأمناء تسجيل الأراضي في مالقة، لكنها لم ترغب مطلقاً في الاستفادة من المزايا الاجتماعية التي تتمتع بها طبقتها، وهو ما بدا لماريو أمراً بطوليّاً، على الرغم من عدم موافقته على شدّة تهكّمها المعتادة على جميع أقاربها، بدءاً من والدتها، وهي أرملة مهيبة تضع رموشاً مستعارة، وتدخّن سجائر ونستون بالغة الطول، ولا تلقي بالاً لأي شيء باستثناء نفسها، لكنها أنقذتهما من بعض الضائقات المالية أكثر من مرة من خلال تحويل بنكي فوري، أو «شيك» مصرفي لحامله.

الاحتياج هو ما يجعل المرء خائفاً ومُذعِناً: والحيازة الآمنة للمال، كما يفترض ماريو، هي ما توقظ وتغذّي الجرأة. كان مغرماً بقراءة كتب التاريخ المعاصر، ولاحظ أن معظم القادة الثوريّين، إن لم يكن جميعهم، لا ينتمون للطبقة العاملة. باستثناء مساعدات والدتها، التي قد تمرّ سنوات كاملة قبل أن تتكرّر، عاشت بلانكا على راتب ماريو وعائداتها الموسمية من العمل مضيفةً في المؤتمرات أو مترجمة كتالوغات أو في رقابة المعارض الموسمية، لكن نشأتها في مثل هذا الأمن الاقتصادي الشديد واكتسابها يقيناً غريزيّاً في وضعها المالي جعلها لا تعتاد الشعور بأيّ تخوّف من المستقبل أو أنّ عليها التصرّف بحكمة، لدرجة أنها في المرّتين اللتين وقّعت فيهما على عقد رسمي لوظيفة، تركتها بعد بضعة أشهر؛ يُرهقها الروتين، أو لا يمكنها تحمّل مدير يطلب منها شيئاً ولو تلميحاً. المواعيد

الثابتة أسوأ من عقوبة السجن -كما يقول ماريو لنفسه- لأصحاب الأمزجة الشبيهة بها. كما دفعها عدم الامتثال ونفاد الصبر إلى التسجيل في دراستين جامعيّتين وعدم إتمامهما، إحداهما في الفنون الجميلة والأخرى في فقه اللغة الإنكليزية. فخلافاً لمعظم الأشخاص في مثل عمرها، لم تتخلَّ بلانكا، التي على وشك بلوغ الثلاثين، عن أيّ شيء: تودّ الرسم، تودّ الكتابة، تودّ معرفة كلّ شيء عن الأوبرا الإيطالية أو مسرح الكابوكي(*) أو أفلام هوليوود الكلاسيكية، تودّ السفر إلى أكثر المدن غرائبية، إلى أكثر البلدان خيالية، تترقرق عيناها بالدموع عند مشاهدة فيلم سيّدة شنغهاي *The Lady from Shanghai* أو عند استماعها إلى جيسي نورمان(**)، ويهتزّ صوتها عندما تقرأ في ملحق الأحد من جريدة الباييس المأكولات الشهيّة التي تُقدّم في أفضل مطاعم مدريد أو سان سيباستيان، مشهّيات لم يستطع ماريو تخيّلها لأن لها أسماء إيطالية أو فرنسية، إن لم تكن باسكية. فمن وقت إلى آخر ينسى أنواع المعكرونة ومفردات المطبخ الفرنسي، لذا صارت مزحة كلاسيكية بينهما أنه لا يتذكّر أبداً ما هي باستا النوكي (Gnocchi) أو البيستو (pesto) أو الكارباتشيو (carpaccio) أو ماغري دي كاناغ (magret de canard)، فضلاً عن المصطلحات التي يتعذّر الوصول إليها للمطابخ الشرقية، التي تحمّست لها بلانكا لبعض الوقت، حتى إنها تعلّمت استخدام عيدان تناول الطعام بالدقة نفسها والسهولة التي تتعامل بها مع سكّين الأسماك، إلى أن أحبطها عدم وجود مطاعم صينية أو هندية جيّدة في خايين.

(*) أحد أشكال المسرح الياباني التقليدي، حظي بشعبية كبيرة في نشأته بعدما كان فن المسرح محصوراً داخل أوساط رجال البلاط والنبلاء. [م]

(**) Jessye Norman (1945–2019): مغنية أوبرا أفروأميركية شهيرة. [م]

عند خروجهما لتناول العشاء مع أصدقاء بلانكا، وجميعهم خبراء في فنّ الطهي والنبيذ، يفوّضها ماريو بكلّ سرور في مهمّة الطلب، لكن بلانكا لا تمزح أمام الغرباء بشأن جهل زوجها بالطهي، بل إنها تعزو إليه تفضيلات لم يكن يعرف أنها لديه، فبدت له كالإطراء: «ما يحبّه ماريو بشدة هو الفوندو الجيّد»، أو «لا يثق ماريو في السوشي الذي يقدّمونه في المطعم الياباني في غرناطة».

يعرّف ماريو نفسه على أنه من أهل الملاعق لا من أهل الشوكة والسكين، لكن هذا لا يمنعه من التقدير والامتنان لتفاصيل بلانكا الدقيقة في الطهي: فالأطعمة التي تطهوها لها مذاقٌ مذهل، أخفّ وألذّ، بإضافاتٍ حامضية وحلوة غريبة، بل وتنويعات لونية غير متوقّعة تتباين كما روائح هذه الأطعمة ونكهاتها. أحب طبخ بلانكا دون قيد ولا شرط، كحبّه لرنين صوتها أو طريقة لبسها، وظنّ أن وجودها بجانبه ما هو إلا التوابل الأساسية للأطباق التي لولاها لرفضها ذوقه الريفيّ للغاية، الذي تربّى أو خُرِّب بلا رجعة بفعل حساء الشعرية، والحُمّص، والعدس أو الفاصولياء، وشرائح اللحم المُقدّد مع البطاطس، وسمك البياض البائس للغاية الذي يقدّمونه في البنسيون.

مذاق طعامها جعله يشعر بعاطفة حسّية على غرار قبلاتها: إنه تأثيرُ ما هو جديد، ما ليسَ له بالكامل، المجهول، وما لا يمكن الوصول إليه، بكلّ ما لم يعرف بوجوده لولا وجود بلانكا وتأثيرها. اعتقد أن المال ليس فقط يثقّف المرء، ويكسب بشرته لوناً برونزيّاً مميّزاً، ويخلّصه من خوفه من عدم اليقين، بل إنه أيضاً يجعل المرء عالميّ الطابع، ويُعلّمه التحدّث بلغات أجنبية واستخدام أدوات مائدة غريبة، والانفتاح على الغرباء دون

جُبن ولا حرج. هو، مَن لم يكن متأكّداً أبداً بأيّ يدٍ تُمسَك شوكة الأسماك، لطالما غمره الإعجاب بسرعة بلانكا ومهارتها في استخدام عيدان الأكل في المطاعم الصينية، وبفتحها وغلقِها كما لو أنها تستخدم فرجاراً، لتُحكم إمساكها ببضع حبّات من الأرز أو بقطعة صغيرة لامعة من البطّ.

إنْ عدَّد ماريو كلّ مميّزاتها التي يعرفها ويقدّرها واحدة تلو الأخرى، فلن تخلو أيٌّ منها من شيء سرّي ودقيق في كماله وتلقائيته، لذا ظلَّ حبّه على الشاكلة نفسها حذراً ومتّزناً: لذا أحبّها سواء بسبب لون شعرها أو بسبب راديكالية قناعاتها السياسية، على الرغم من أنها بدت متشدّدة بعض الشيء في بعض الأحيان، بسبب جاذبيتها الجنسية أو بسبب طريقتها المميّزة في تقشير برتقالة أو نطق عبارة بالإنكليزية، تعنيه رائحة عطرها مثلما يعنيه الرقيّ الفكري لحديثها. حتى إنه نجح تدريجيّاً في قبول كلّ أصدقاء بلانكا تقريباً، خاصةً المثليّين منهم، مَن لا يخشاهم بتاتاً. الشخص الذي لم يحبه منذ البداية، من قبل أن يراه، من اللحظة المؤسفة التي سمع فيها اسمه لأول مرة، هو ذلك الشخص: لويس أُونّسيمو، الكاتب المسرحي أو السيناريست أو شيء من هذا القبيل، فنان الوسائط المتعددة، مُنوِّم مغناطيسي، محتال، *metteur en scene*(*)، كما يقول ناظراً إلى بلانكا كما لو أنّ ماريو غير موجود، مُتحدّثاً الفرنسية بلهجة أهل بَالَنْسِيَا(**)، وناثراً وسط حديثه كلماتٍ أُضيفت سريعاً إلى مفردات بلانكا وأصدقائها: استيدج(***)، متوسطي، افتراضي، تأسيس، عروض الأداء، تمازج، متعدّد

(*) بالفرنسية في الأصل، وتعني: مُخرج. [م]

(**) Valencia: عاصمة مقاطعة بلنسية، تقع في شرق إسبانيا على البحر المتوسط. [م]

(***) كُتبت stage في الأصل وأبقيت عليها لشيوع استخدامها في الحديث. [م]

الوسائط، كلمات من شأنها أن تثير على الفور في ماريو ردود فعل غريزية من الكراهية تشبه في ضراوتها بصقة سامّة، أو لدغة عقرب سريعة وقاتلة؛ بصقة تلقّاها ماريو بمفرده، لدغة عزّز مفعولَها شعورُه بأنها ستتسبّب في موته هو دون سواه.

الفصل الرابع

بالطبع، لم يكن أُونِّسيمو أوّل مترصّدٍ يقترب من بلانكا بإغواءاته الفكرية، أو أول طفيليّ يتغذّى على تقديسها غير المشروط لأيّ شكلٍ من المواهب أو الفنون. تميل بلانكا إلى تبديد محبّتها على مَن يلقى استحسانها، مثل الوريثة السخيّة والمتهوّرة، فتُقسّمه بين المخادعين والنفعيين. باستثناء ماريو، الذي تتمثّل مهارته الوحيدة ذات البعد التشكيلي في الرسم الخطّي، فإن جميع شركاء بلانكا العاطفيين السابقين وجميع أصدقائها الحاليّين تقريباً ينشغلون بأحد أشكال الفنّ ويبدون اهتماماً خاصاً بكلّ الأنواع، دون استثناء لأيٍّ منها حتى مصارعة الثيران، وتصفيف الشعر والأغنية الإسبانية. كان ذلك في الثمانينيات، وبخصوص التسلسل الطبقي الهرمي الغامض لهؤلاء، فالخيّاطونَ ومصفّفو الشعر ومطربو الفلامنكو يحظون بمكانة الرسّامين أو النحّاتين نفسها، وهو ما فاجأ ماريو في البداية، لأنه نشأ على احترامٍ للفن والمعرفة تشوبه رهبة الفقراء، ولكن بعد ذلك بدأ يراه تدريجياً أمراً طبيعياً، ليس فقط لأن المرء يعتاد كلّ شيء، ولكن لأنه بتدقيق النظر في أعمال هؤلاء الرسّامين والنحّاتين الذين تتردّد عليهم بلانكا، لم يكن يرى استحقاقهم لتقدير أكثر مما تستحقّه قَصّة شَعر.

يمنعه حذرٌ غريزيّ وعقدة نقص مُمزِّقة من التعبير عن آرائه: وما يحدث في كثير من الأحيان هو افتقاره التام إلى أيّ رأي، فيضطر إلى ارتجال رأي خوفاً من أن يروه تافهاً. يخاف الخطأ ويخاف الإساءة، ولكن قبل كل شيء يخاف إثبات أنه ليس على المستوى الفكري نفسه لأصدقاء بلانكا.

كان أول شريك عاطفي لها في سن المراهقة مُغنّياً وكاتب أغانٍ مُبتدئاً في مثل عمرها تقريباً، التقت به مرّةً أخرى بعد سنوات عدّة، بعد زواجها بالفعل من ماريو، في «أسبوع أغنية المؤلّف» برعاية حكومة إقليم الأندلس في خايين. شعرَ ماريو بالغيرة من الطريقة التي عانقت بها بلانكا حبّها القديم عندما ذهبا لتحيّته في غرفة الملابس في نهاية الحفل، بعد أداء بدا لماريو -بينه وبين نفسه- مؤسفاً، لكنه هدأ بعض الشيء عندما رأى بطل مُراهقتها ذلك الذي أتت على ذكره مرّاتٍ عديدة، وقد عفا الزمن على شعره الطويل فأصبح يعاني من بدايات الصلع، مع قليل من القشرة على أكتاف قميصه الضيّق، وبمظهر عام نزق ومفتقر للنظافة الشخصية. أخبرهما عن تسجيل من كلمات شعراء من خايين سينتجه له قطاع الثقافة في الإقليم، وعن جولته المُحتملة في كوبا ونيكاراغوا. بعد ذلك اليوم لم تذكره بلانكا مجدداً، وشطب ماريو اسمه من القائمة الخيالية لأعدائه المحتملين.

كما ضمّت السيرة الذاتية العاطفية لبلانكا لاحقاً مُصوّراً ومُخرجاً سينمائياً مبتدئاً، وأستاذاً جامعياً مُتعصّباً لپوتشيني(*) ويكبرها بعشر سنوات. من ماضيها الغرامي ظلّت هناك آثارٌ للشغف الثقافي الذي لم تفقده بالابتعاد عن الأحبّة الذين نقلوه لها، كطبقات متتالية لموقع أثري: المصوّر

(*) Giacomo Puccini (1858–1924): موسيقار إيطالي شهير. [م]

الفوتوغرافي الفرنسي كارتييه بريسون، وأوبرا «توراندوت» الإيطالية، والمخرج والكاتب إريك رومير. دخلت الفنون التشكيلية حياتها في وقت متأخر نسبياً. عندما تعرّفت على ماريو كانت لا تزال تعاني من الذيول الأخيرة لعلاقة متأجّجة وكارثية مع الرسّام خايمي نارانخو، الذي يدعوه أحدث أتباعه المخلصين وأكثرهم لزوجة «جيمي ن.» باعتباره الولد الشقي للطليعة المحلّيّة والمحتكر لجميع الجوائز الرسمية للمقاطعة.

على مدار العقد الماضي، شابهت حياة بلانكا العاطفية، في رأي ماريو، حيوات تلك النساء اللاتي كانت تجمع سِيَرَهُنّ الذاتية: ميسيا سيرت، أو ألما مالر، أو لو أندرياس سالومي(*)، واللاتي خطّطت لكتابة مقال طويل جداً عن إحداهن، ظلّ دوماً في مرحلة المسوّدات، في تلك الدفاتر التي تحتفظ بها بنظامٍ صارم في مكتبها. بداية الأمر كانت في مالقة وغرناطة ثم في خايين، حيث ارتبطت بلانكا عاطفياً -وإن ظلّ في بعض الأحيان على المستوى الفكري فقط- برجال تسبّب ذكاؤهم وثقافتهم في تعقيد ماريو سرّاً حين تحادثه عنهم. لم تلهمهم رغباتٍ فقط: بل أغانيَ وقصائد ولوحاتٍ أيضاً، كما قيل إن في مكتبتها مخطوطة رواية حقّقت نجاحاً كبيراً، موقّعة من المؤلّف، وتحتفظ بها في ركن خاص، على طاولة

(*) Misia Sert (1872-1950): عازفة بيانو كان لها صالون أدبيّ في باريس تردّد عليه العديد من الفنانين واستلهموها في أعمالهم.

Alma Mahler (1879-1964): ملحّنة وكاتبة وموسيقية نمساوية ارتبط اسمها بكثير من فنّاني عصرها، تزوّجت عدة مرات إحداها من الموسيقيّ غوستاف مالر.

Lou Andreas-Salomé (1861-1937): كاتبة وقاصّة ومُحللة نفسية من عائلة ذات أصول روسية وألمانية، ارتبط اسمها بأبرز كتّاب العصر آنذاك ومن بينهم نيتشه وريلكه وفرويد. [م]

عملها، مع مخطوطات أخرى، موقّعة دائماً، لقصائد وسيناريوهات أفلام ومجموعات قصصية وحتى مقطوعات أغانٍ.

على جدران غرفة المعيشة هناك رسومات ولوحات النقش الغرافيكي وُقِّعَت لها بالقلم الرصاص، إضافةً إلى قصيدة مكتوبة بخط اليد، بحبر أحمر وأخضر وأصفر بقلم رافائيل ألبِرتي(*)، الذي تحدّثت إليه بلانكا عدة مرات. وتدعوه ببساطة رافائيل. علّقت في غرفة النوم، على رأس السرير، لوحة كبيرة شبه تجريدية لنارانخو، رُسمت قبل انفصاله عن بلانكا بفترة قصيرة، وعلى الجدار المقابل تماماً هناك لوحة مصفرّةٌ وضبابية لفرناندو ثوبِل(**) كان لها فضل كبير في مساعدة ماريو على النعاس، فقد كانت ردود أفعاله تجاه الفن لها طابع جسدي كالطفح الجلدي: فعلى سبيل المثال تتسبّب له فريدا كالو بحكّة كما لو أن شيئاً دُهنيّاً أو مُشعِراً في سقف حَلقه، كما يتسبّب له أنتوني تابييس(***) (الذي لحسن الحظ لم يكن قدّيساً بالنسبة لبلانكا) بمزيج من الحزن المُضجر وحرقان المعدة. ومع ذلك تعمّد التظاهر بالاهتمام، ووبّخ نفسه بحسرة على افتقاره إلى الحسّ الفنّي، واضطراب قراءاته وندرتها، وكسله الأصيل ومقاومته الصمّاء التي استشعرها لأكثر من مرّة إثر حمله على الذهاب إلى حفلة موسيقية، أو إلى فيلم أو عرضٍ أول لعملٍ مسرحي، أو إلى أحد تلك المعارض التي يعرف فيها الجميع بلانكا ويحيّونها، والتي تهيمن عليها لوحات لدُمى أو لحشرات ويرتدي فيها الشباب من الجنسين ملابس حالكة السواد ويعانون

(*) Rafael Alberti (1902–1999): شاعر إسباني ينتمي لجيل 27. [م]

(**) Fernando Zóbel (1924–1984): رسّام تجريدي فلبيني إسباني ورجل أعمال. [م]

(***) Antoni Tàpies (1923–2012): رسّام إسباني ونحّات ومُنظّر للفن. [م]

من شحوبٍ شبحيّ. في تلك المناسبات، يلازم ماريو الرعب من أن يجد نفسه محبوساً في شَرَك لا يمكن الفكاك منه، في موقف أبدي: حفلات جاز تجريبية يبدو فيها الموسيقيّون وكأنهم يعتصرون الآلات والنوتات الموسيقية لساعاتٍ طويلة بلا نهاية؛ ومعارض لا تنتهي فيها مُطلقاً جولات من التحايا والقُبلات على الخدّين (حتى بين الرجال) ومن كؤوس الشمبانيا الفاترة والمجاملات والنميمة؛ عروض الرقص التي تتكرّر فيها عبارة موسيقية واحدة أو إيقاع إلكتروني معيّن دون أدنى اختلاف.

في خايين، لحسن حظّ ماريو، لم يكن هناك أوبرا، لكن ذات مرّة في إحدى رحلات الحجّ الثقافية المُرهِقة إلى مدريد -حيث يجب عليه رؤية كلّ شيء والاستفادة القصوى من عطلة نهاية الأسبوع- أخذته بلانكا إلى عرض أوبرا معاصرة، في مسرح كان سينما الحيّ في ما مضى، في ساحة شعبية جميلة في شارع لابابييس(*)، حيث راق لماريو المكوث ليحتسي البيرة وينظر إلى الناس. لكنه لم يجرؤ على قول ذلك لبلانكا، وبالتأكيد لم يُرِد أن يتركها بمفردها في المسرح، لأن مؤلّف الأوبرا كان شخصاً التقت به في غرناطة، وعرّفها على قانون النغمات الاثنتي عشرة والموسيقا الإلكترونية: كلّمها لدعوتها بصفة شخصية إلى العرض الافتتاحي، الأمر الذي كاد يفقدها رشدها من الفرحة ونفاد الصبر، وعندما تبادلا التحية في ردهة المسرح (الذي يُطلق عليه ماريو متخوّفاً اسم مركز الاتجاهات الاستعراضية الجديدة)، قبّلها الرجل من فمها، دون أدنى تردّد، وضغط على مؤخّرتها بشكل سافر بكفّيه المشعرتين، على الرغم من أنه بدا لماريو

(*) شارع لابابييس (Lavapiés): أحد أشهر شوارع مدريد ويقع في حيّ Embajadores في وسط العاصمة. [م]

وكأنه واعظ من الكويكرز(*)، بالسواد التام لزيّه دون ربطة عنق، وبلحيته الغزيرة، رغم أنه لا شارب له. لكن الأسوأ من ذلك كلّه هو عرض الأوبرا نفسه، الذي بدا بلا بداية ولا نهاية، وبلا حبكة، ولا نظام، والذي استمرّ واستمرّ بلا رحمة إلى الأبد، كما بدا وكأنه سينتهي ليبدأ من جديد. في النهاية نظر ماريو خلسة إلى الساعة مهزوماً ومُدمّراً يلازمه الصداع وهو يشارك الجمهور التصفيق نفاقاً، واكتشف مندهشاً أن هذا العذاب اللامتناهي لم يستمرّ سوى ساعتين.

لحسن الحظ لم تكن الحياة الثقافية حيوية في خايين؛ فيمكن أن تمرّ أسابيع كاملة، خاصة في الصيف، دون أي حدث جوهري. ولكن، وبصفة خاصة في تلك الفترات، تكون وَحشة بلانكا العابرة أكثر حِدّة، في ذلك الوقت تنظر إلى الصفحات الثقافية للجريدة، وتودّ الذهاب إلى مدريد أو سالزبورغ، أو حتى إلى غرناطة القريبة والمميّزة وشبه الأسطورية، حيث الحياة الفكرية لا تهدأ أبداً، وحيث تُقدّم العروض الأولى لجميع الأفلام الجديدة مباشرة، بعضها في نسخها الأصلية، وحيث تجد مهرجانات دولية لكل شيء: للموسيقا الكلاسيكية والجاز والمسرح وحتى التانغو.

دخل البوليرو والتانغو إلى هوايات بلانكا الموسيقية في ذلك الوقت تقريباً، وبدأت تسمعها في بعض حانات الكوكتيل التي يذهبان إليها في عطلات نهاية الأسبوع، مما أتاح لماريو حلاً وسطاً مريحاً بين الملل السيمفوني لقاعات الحفلات الموسيقية، والإيقاعات الشبيهة بأجهزة

(*) الكويكرز: هي التسمية الأكثر شيوعاً للصحابيّين أو جمعية الأصدقاء الدينية، وتُعتبر جزءاً من كنائس السلام التي تتخذ الموعظة على الجبل ليسوع منبعاً لتعاليمها، وتُعدّ من أولى المؤسسات الدينية المناهضة للعبودية. [م]

أمراض القلب في الحانات الليلية، حيث الموسيقا، إن سُمّيت كذلك، لا تُطاق بدرجة تفوق المحادثات الصاخبة، وكحول البراميل ودخان التبغ.

بمناسبة عيد ميلاد بلانكا التاسع والعشرين، جهّز لها ماريو مفاجأة متواضعة: شريطين لبوليرو مونشو(*)، نفدت طبعتهما على ما يبدو، وجدهما بالمصادفة في واجهة عرض إحدى محطات الوقود. ظلّ يستمع إلى أحدهما في السيارة، أثناء القيادة في طريق عودته إلى المنزل، ولأنه كان عاطفياً للغاية، فقد اجتاحه على الفور -بدءاً من بطنه صعوداً إلى صدره وحلقه ثم إلى القنوات الدمعية- مدٌّ متكاثف من القلق غير المبرّر ومن السعادة العصبيّة، باستدعائها من الذاكرة، وبتساميها، وتأكّد استشعارها في السابق عبر الزمان. وحده في السيارة، منتظراً تحوّل لون إشارة المرور في «فوينتي دي لاس باتاياس» إلى الأخضر، لان قلبُه وترطّبت عيناه بفعل الموسيقا، فلم يكن استمتاعه نابعاً من حبه لبلانكا فحسب، بل أيضاً من الوضوح المُطلق لأنه ينعم بلا ريب بشعورٍ جماليّ طالما أمتعها وأقرّت به.

كم مرّة في حياته تعذّب أمام لوحة، أو فيلم، أو رباعية لموسيقا الحجرة، متسائلاً عما إن أعجبه ذلك حقاً؟ إن وجد من السخف بعض الشيء تحريك رأسه بأداء إيقاعي أو النقر على الأرض بقدميه؟ إن كان انقطاع العرض يعني نهايته، مما يتطلّب تصفيقاً فورياً أو أنه مجرّد استراحة قصيرة فقط، أي إحدى الاستراحات التي يُسمع فيها السعال والنحنحات، وفي بعض الأحيان يبدأ أحمق في التصفيق بمفرده، فتتجه نحوه عشرات الرؤوس كما لو أنها ترغب في صعقه؟ لكن الآن، في السيارة، وهو يرى

(*) Moncho (1940–2018): اسمه الحقيقي رامون كالابوتش باتيستا، وهو مُغنّي بوليرو إسباني. [م]

على الجانب الآخر من الزجاج الأمامي مباني وأشجار الشوارع تغطّيها الثلوج، لا يمكنه إنكار استمتاعه بما يسمعه، وتأثّره حتى النخاع، وأن هذه المشاعر ليست حقيقية فحسب، بل صائبة أيضاً.

في لَمحة مُلهِمة، أوقف السيارة بجوار متجر قرطاسية اعتاد التزوّد منه بلوازم الرسم، واشترى ورقَ تغليف وأشرطة هدايا. حينما عاد إلى المنزل لم يجد بلانكا: تركت له ملحوظة على طاولة غرفة الطعام، أخبرته فيها أنها ذاهبة إلى مقابلة عمل لوظيفةٍ ما، وأنها ستعود قريباً. لو ركّز في الأمر حينذاك؛ لو انتبه لتكرارها العَرضي للأسماء، والمصادفات التي باتت تحيك كارثته دون أن يرى أيّ شيء، فرغم حذره كان أخرقَ، ومُشوّشاً، وأعمى يواجه أمراً مستعصياً.

تأثّر بخَطّ بلانكا الأنيق والكلمة الأخيرة في الملحوظة: «قبلاتي». لأول مرّة أسعده عدم وجودها. قَصَّ ورق التغليف، كان أسود لامعاً وحريرياً، ولَفَّ الشريطين، وطوى زوايا الورقة بمهارة ودقّة الأوريغامي، وحسبَ الطول الدقيق للشريط الذهبيّ الذي ستستلزمه العقدة النهائية كي لا تصير لفّة الهدية مُبهرجة أو سوقية. في غرفتها الصغيرة جدّاً، التي يُسمّيها كلاهما الاستديو، حرّك يديه بتركيز تحت ضوء المصباح، وملّس على الورقة، ودبّب طيّاتها بحافة ظفره، ومرّر الشريط الذهبي للهدية بين إبهامه والسبابة لتشكيل عقدة يمكن حلّها بمجرّد سحبها بلطف.

وضع الهدية على رفٍّ مرتفع، بشعورٍ بدا له غريباً، ومُختلساً، في الثانية عشرة ودقيقة، الدقيقة الأولى من عيد ميلاد بلانكا، لم يستطع تحمّل نفاد صبره وأعطاها الهدية. لم يعذّبه الشكّ في حُسن اختياره هذه المرّة أيضاً، في ألّا تُعجَب بلانكا بالهديّة، فتتظاهر من باب التلطّف بامتنان لن يُخفي

تماماً آثار إحباطها. كم كان محرجاً وهو يحاول حلّ العقدة الذهبية للهدية، وكم كان متوتّراً من تشابك ثنايا الغلاف وأطرافه، وانتهى به الأمر بتمزيقه، يا له من شرف أن تقف أمامها وتتلقى نظرتها فور رؤيتها للشريطين قالت: «مونشو.. عشرون بوليرو ذهبية!»، بنبرة صوتها تلك التي تعبّر بها عن نشوتها غير المشروطة، وامتنانها المنبهر، الذي يعدّ أحد أهمّ أسباب حبّه لها، لكونها تبالغ في تمجيد كلّ ما يعجبها.

على الفور شغّلت بلانكا أحد الشريطين، وعندما بدأ عزف أول بوليرو، التفتت إلى ماريو، ودعته بإيماءة للرقص معها. لم يرقصا، ظلّا متعانقين في وسط الغرفة، يتمايلان بهوادة، دون أن يحرّكا أقدامهما، بينما مونشو يغني «خُذها»(*). لكن أحداً لن يأخذها، هكذا فكّر ماريو بفخر ورغبة، دافعاً إيّاها برفق وإصرار جهة غرفة النوم، تاركاً نفسه مأخوذاً بها.

(*) اسم الأغنية بالإسبانية «Llévatela». [م]

الفصل الخامس

ربما لن يحظى بهُدنة أبداً: عليه أن يقضي كلّ ساعة وكلّ يوم من بقيّة حياته للفوز بها، وإغرائها، متأهّباً بيقظة ودهاء لظهور أيّ خطر، أيّ عدوّ. بالطبع لم يكترث، فبشكلٍ عمليّ عَلِم ذلك منذ أن قابلها، وإن أعاد التفكير في ما فعله، لوجد أنه نجح بشكل كبير منذ ذلك الحين. لم يستغرق يومين حتى وقع في حبّ بلانكا: ثم بدأت هي شيئاً فشيئاً في التجاوب معه، إلى أن انزلقت، دون أن تدري هي نفسها، من التعاطف والامتنان حتى الحبّ، لم يكن الأمر وليد المصادفة، أو وليد آليات الحب العمياء، ولكنّه النتيجة البطيئة والمُستحقّة لمثابرة ماريو، واهتمامه المستمرّ، وحنانه غير المشروط كما لو أنه ممرّض.

في الواقع كان كذلك، لبعض الوقت، تقريباً في بداية العلاقة، ممرّضاً مجتهداً يعتني بها بصبر ومهارة، وقد غيّر ملاءاتها المبتلّة بعد ليلةٍ كاملة من الهذيان والحمى، حتى استعادت قوّتها ورغبتها في العيش شيئاً فشيئاً. قالت له بلانكا ذات يوم: «أنت أعدت تجميعي، كأنك عثرت على مزهرية خزفية مُهشّمة إلى ألف قطعة وتحلّيت بالصبر والقدرة على إعادة تجميعها بالكامل، دون إهمال أصغر القطع».

ماريو، الذي يولي الاستقرار تقديراً لا يفوقه أيّ شيء في الحياة تقريباً، جاء مكرِّساً السنوات الأخيرة لاستكشاف عدم استقرار بلانكا وللإعجاب به، وفي الوقت نفسه لمحاربته أو تخفيفه، ولتزويدها بمساحة مرجعية آمنة تمكّن بهجة روحها من الإزهار دون إهدار ولا معاناة. مع رجال آخرين، أو بنسيانها لنفسها، تنجرف بلانكا -في الواقع كانت قد انجرفت بالفعل- إلى فوضى مُشوّشة ومؤلمة وعقيمة، إلى دربٍ من الذهول أمام كارثتها الخاصة، فيه شيء من القدرية التي تشبه استسلام مدمن كحول -ما زال في رحلته للتعافي- أمام كأس، أو مثل شخص لا يواظب على الحفاظ على نظافته الشخصية، فيتخلّى عن عاداته اليومية، وينتهي به الأمر بالعيش في مكبّ نفايات.

عندما تعرّف ماريو عليها، كانت بلانكا تشرب ستّ كؤوس ڤودكا أو سبعاً يومياً، وتدخّن علبتين من ماركة كاميل، وتحتفظ في حقيبتها بالمناديل الورقية المستعملة والتبغ وأوراق لفّ السجائر والمنشّطات والحبوب المنوّمة. حياتها مع الرسّام نارانخو، الذي أبهرها في البداية بمواقفه العبقرية والقوة البصرية للوحاته، سرعان ما انجرفت، كما كان متوقّعاً، نحو جحيم صاخب من الهجران والتصالح، والخيانات، والهروب الذي ربما كان سيستمرّ لسنوات لولا الظهور المفاجئ لماريو.

يُقال إن بلانكا -وقد تأكّد ماريو من صحة الأمر- كان لها تأثيرٌ حاسم في بدايات مسيرة نجاح نارانخو (يفضّل ماريو أن يُقتَل على أن يناديه جيمي). فلم تشجّعه فحسب، ولم تكتفِ بتحسين وضعه ورفع منزلته بفضل تأثير إعجابها: بل استخدمت أيضاً النفوذ العائلي نفسه الذي طالما رفضته لجلب مشترين للوحاته وتوفير قاعات لعرضها، وحشدت أصدقاءها في الصحف

والراديو لإجراء مقابلات معه، بمثابرة وجرأة يفتقر إليهما نارانخو بالطبع -على الأقل في ذلك الوقت- وقت تظاهره بأنه فنان متوحّد ومغضوب عليه، قبل سنوات من فوزه بجائزة معرض بينالي للإقليم وتحوّله إلى ما أسماه هو نفسه -بتلك الوقاحة التجارية الساخرة التي سُمّيت حداثة في الثمانينيات- البيزنس.

الطاقات التي بمقدور بلانكا استثمارها في مزايا الآخرين من الممكن أن تصير لا محدودة، بل وإعجازية. ربما لأنها تعطي من نفسها بسخاء لأشياء خارجة عنها -هكذا اعتقد ماريو- فتفتقر بعد ذلك إلى قوة الدفع اللازمة لتوجيه ذاتها، وللاضطلاع بالتزاماتها الشخصية التي لا يمكن تحقيقها سوى بتركيز الجهد على إرادتها. فهي تنعم بموهبة نادرة للغاية، موهبة الاستحسان، تعرف كيف تشرح ما تستحسنه والأسباب التي دفعتها إلى استحسانه بقناعة جعلت حماسها معدياً.

عندما قابلت نارانخو، سنة 82 أو 83، لم يكن أحد يؤمن بلوحاته، ولا حتى هو نفسه. أقنعته بلانكا، بطريقةٍ ما، أنه رسّامٌ حقيقيّ، وأن لا مبالاة الآخرين تجاه عمله لا ترجع إلى ضعف لوحاته، كما بدأ نارانخو نفسه في التفكير، ولكن إلى رداءة ذائقة الجمهور، وإلى الجهل الإسباني المُستعصي، وإلى البؤس الثقافي للمقاطعات. بلانكا هي مَن ثنته عن الإغراء المشؤوم للتقدّم إلى مسابقات الحصول على وظيفة معلّم رسم: هي أيضاً المسؤولة عن مشاركته في مسابقة معرض بينالي للمجلس الإقليمي لخايين، التي رفض نارانخو المشاركة فيها، ليس فقط، كما قال، لاشمئزازه من استرضاء السلطة، ولكن قبل كلّ شيء خشية الشعور بالمهانة إن لم يجرِ اختياره. ودون علمه -في ذلك الوقت كان ضائعاً بين تعاطي الحشيش ومشروب

الجِن- اختارت بلانكا إحدى لوحاته وأرسلتها إلى البينالي، ومن المحتمل أنها زَكّته عند أحد أعضاء لجنة التحكيم، ربما هو نفسه الأستاذ الجامعي الذي نقل إليها شغفها الدائم ببوتشيني. نفت هي هذه النقطة، فالتشكيك في موهبة نارانخو يغضبها، حتى بعد فترة زواجها الطويلة من ماريو، ولكن على أي حال بات صحيحاً أنها فعلت كل ما في وسعها لدفع مسيرة حبيبها في ذلك الحين إلى الأمام، وأنها نجحت بطريقتها الخاصة.

كانت هي أيضاً مَن لا تدعه يتهاون في الاحتفالات المحلّيّة والإقليمية، فبعد معرض بينالي الخاص بالمجلس الإقليمي، فاز بجائزة ثاباليتا من بلدية كيسادا، وبعد بضعة أشهر بمسابقة المُلصق الإعلاني لاحتفالات مدينة بياسة، التي كانت فضيحة في تلك المدينة المحافظة للغاية ومثّلت قطيعة شعواء مع التقاليد الاجتماعية السائدة حتى ذلك الحين لمثل هذه الملصقات.

في مقاطعة خايين، صار نارانخو التجسيد الراديكالي للطليعة، ولكن كان مُرجّحاً للغاية ألّا تستمر مسيرة نجاحه لولا وجود بلانكا الشغوف: فهي لم ترضَ عمّا وصل إليه بالفعل، بل كان عليه أن يقفز القفزة الحاسمة باقتحام غرناطة ومدريد وكلّ بقاع العالم.

دون أن تُدرك ذلك، كانت هي مَن تسبّبت في نكبتها الخاصة، لأن الاتصال مع مدريد هو ما انتهى بقلب نارانخو رأساً على عقب، بتحويله إلى كائن كاريكاتوري بغيض، جيمي ن. الذي بدا وكأنه اسم مسؤول «دي جي» أكثر منه اسماً لرسّام. لم يتسع المقام دوماً للسماح لبلانكا بمرافقته في رحلاته إلى العاصمة، وعلى الرغم من أن لديها من رحابة الصدر ما لا يدع مجالاً لتصديق خرافات الغيرة من حيث المبدأ، كالكثير من النساء،

فإنها سرعان ما انتبهت إلى أن نارانخو يتغيّر بسرعة كبيرة، أو ربما يظهر على حقيقته.

انتشرت في خايين أخبار عن نجاحه في مدريد، وهي أخبار -كما اتضح بعد ذلك- لم تصل بعد إلى مدريد. ودار الحديث أيضاً عما سُمّي النيو لوك(*): السترات ذات الرقبة العالية، والسراويل القطيفة، والأحذية المصمتة ذات الرقبة التي تعود لحقبة الواقعية البروليتارية أو التعبيرية التجريدية الأميركية، أفسحت مجالاً لغرفة ملابس لا ينقصها الجلد الأسود والمُصنّع، ولا أقمشة الحمار الوحشي والفهد المقلّدة. حلق لحيته وحدّد سوالفه لتصل إلى خدّيه، لأنها أوقات لا تنفصل فيها جرأة الحداثة عن بعض تقليعات الحلاقة والتجميل، وفيها بات اختيار قصّة شعر أمراً حاسماً في حياة المرء تماماً كما كانت قبل عشر سنوات أهمية إيديولوجيّته السياسية. في البداية فوجئت بلانكا، ثم شعرت بالذهول، وانتهى الأمر باستشعارها للمرارة والخيانة، حتى إنها حاولت لفترةٍ البقاء بجانبه، وإضفاء معنى نبيل على الأشياء الجديدة التي سمعته يقولها أو يفعلها، والتظاهر بأنها لم تنتبه إلى حذائه المُدبّب أو ولعه المُستحدث بموسيقا الديسكو، والأحداث الاجتماعية، والكوكايين: لكن بخصوصه، باتت تفقد استعدادها الحماسي لتَقبُّل هوايات مَن تُغرَم به.

نارانخو الذي أحبّته كان فنّاناً فظّاً وخجولاً، متحفّظاً لدرجة الولع بالانعزال وكراهية البشر، وشيوعياً لا يتزعزع وصديقاً للحشيش، وللكحول قبل أيّ شيء، نائياً عن جميع الأعراف الاجتماعية، وبضمن ذلك: العمل،

(*) كُتبت في الأصل بالإنكليزية كلمة (look) في إشارة إلى الطَلّة أو المظهر، وفضّلت الإبقاء عليها لشيوع استخدامها. [م]

والمونوغامية(*)، والأبوّة، والمواعيد، والتقليعات التصويرية، نصيراً لقضاء بضع ليالٍ في احتفالات بوهيمية بأكواب من شراب اليانسون في حانات الدعارة؛ فحالة الصعلكة الذكورية المتأصلة كانت قد اكتسبت، في ذلك الوقت في قطاعات معيّنة بين مثقّفي المقاطعات، صيتَ التشديد على التحرّر، واللعنة الفنية، والانشقاق الحياتي. الجيمي ن. الذي بدأ في تحقيق أهدافه بعد رحلاته الأولى إلى مدريد، والذي سيتألق بعد بضع سنوات في حانات خايين العصرية، كان ديفو(**) غريب الأطوار ومخنّثاً إلى حدٍّ كبير، ومدمناً صريحاً لتملّق السياسات والمال، يرتدي ملابس تشبه عارضي الأزياء، ولكن مع الحفاظ على الملامح القاسية والقديمة لوجه القرويّ، والظلّ الداكن للحيةٍ ريفية تتعارض مع الشحوب النظامي الخافت الذي تتطلّبه المرحلة. بدأت تحيط به ما يُشبه الجوقة من الأتباع الشباب الذين شكّلوا مجموعة غامضة، فنية أو خاصة بالتصميم أطلقوا عليها اسم La Factory. كما تنادوا في ما بينهم بألقاب نسائية واحتفوا بكلّ عبارة يقولها وكرّروها، في جوٍّ طائفي أحمق ذكّر بلانكا أكثر من مرة بزُمرة هاري كريشنا(***): هؤلاء هم مَن بدؤوا في مناداته جيمي ن. وفي تقليد حركاته وطريقته في اللبس، رغم ما يبدو أحياناً من أنه هو مَن يُقلّدهم، وهو ما لم يخلُ -نظراً لسِنّه- من شيء من السخف الواضح بصورة مؤلمة

(*) الالتزام بشريك عاطفي واحد أو الزواج الأحادي. [م]

(**) ديفو: لقب يُطلق على نجم الفنون الاستعراضية والمطرب ذائع الصيت، ومؤنثه ديفا. [م]

(***) حركة هاري كريشنا: تُعرف أيضاً باسم الجمعية الدولية لوعي كريشنا (ISKCON)، وهي طائفة صوفية في الهندوسية، تُصنّف عادةً باعتبارها شكلاً توحيدياً من الهندوسية. [م]

لعيون بلانكا غير المنتبهة على الدوام. الآن أعلن وَلعه بالرسوم المتحرّكة وبالمستجدات الأكثر ابتذالاً لموسيقا الپوپ، هو الذي ظلَّ حتى وقت قريب جداً ينغلق على نفسه ليرسم كلّ صباح مستمعاً إلى موسيقا الجاز بأعلى صوت، مثل فنّانه المفضّل جاكسون پولوك(*). في ساعات إحباطه الحالكة، أخبر بلانكا عدّة مرات أنه يفضّل حرق لوحاته أو رميها في مكبّ نفايات قبل أن يهين نفسه بقبول المطالب التجارية لصالات العرض: الآن يحبّ أن يكرّر الشعار الذي سرعان ما نسخه تلاميذه ونشروه، واكتشفت بلانكا لاحقاً أنه لا يخصّه حتى: «عليك أن تفيقي من الأحلام يا بلانكيتا، الطليعة هي السوق!».

في واحدة من أوائل المرّات بعد عودته من مدريد، بعدما صار لديه مَرسم هناك، سألته بلانكا، متغلّبة على جُبن الأحبّة، ما إن كان في حياته امرأة أخرى. وقتئذٍ أقسم نارانخو أو جيمي ن. نافياً، وبدا متألماً للغاية من شكوكها مما جعلها تشعر أنها ظالمة ومذنبة وخسيسة. من مُتهِمة تحوّلت دون أن تدري إلى مُتَّهَمة: فبدلاً من أن تطلب تفسيرات، الآن تطلب العفو. بالطبع تصافيا وقضيا ليلة حبّ كليالي الأيام الخوالي، غير أنهما الآن يفعلان ذلك بتحفيز تعاطي الكوكايين، الذي بدأ يحلّ محلّ الحشيش في مكانة صيته الثقافي: فهو مُثير، لا يُهدّئ بل يعزّز سرعة خاصة جداً للأوقات، نظيف ووقتيّ بلا دخان ولا مخلّفات، وعلاوة على ذلك، وفقاً لما يقولونه، يثير الرغبة الجنسية بصورة مذهلة، ولا يتسبّب في الإدمان(**)،

(*) Jackson Pollock (1912–1956): رسّام أميركي وواحد من روّاد الحركة التعبيرية التجريدية. [م]

(**) معلومة غير صحيحة علمياً. [م]

فلا علاقة له لا بشطحات الهيبي إثر تعاطي الحشيش، ولا بفُحش الهيروين وقذارته.

قضيا معاً عطلة نهاية الأسبوع تلك، وغادر نارانخو ليل الأحد في القطار السريع إلى مدريد. وقبل خروجه بدقائق، وقت وداعهما، غمز لها سائلاً بصوت خفيض أن يذهبا معاً إلى مرحاض القطار. لوهلة ظنّت بلانكا، بدهشة وسرور، أنه يستميلها، أنه يرغب في أن يدخل معها في مضاجعة مشبوبة وخاطفة ومتهوّرة وشبه مستحيلة في هذا الحيّز الضيق. لكن ما حدث أن نارانخو طلب منها أن تعطيه المرآة التي تحملها في حقيبتها ليعدّ عليها سطرَي الكوكايين مُستخدماً بطاقتها الائتمانية التي حصلت عليها مؤخّراً. قال لها: «لو كانت ڤيزا ذهبية لكنتِ الآن أكثر ثراءً»، بينما يمرّر سبابته على حافة البطاقة محرّكاً إياها بنهم نحو شفتيه وفاركاً به لثّته لتعجيل مفعول بقايا الكوكا الأخيرة، لثّته الضخمة التي تعود لشاب قرويّ قوي البنية، من الصعب جداً إخفاؤها، شأنها شأن الظلّ الداكن للحيته أو لهجة خايين التي تطفو سالمة بين سلسلة كلمات الموضة والتصغير الأنثوي والمصطلحات شبه الإنكليزية التي ينسج منها أحاديثه المتكلّفة.

حينما حكت بلانكا هذه القصص لماريو، بدا له أنها حدثت في عالم آخر، وليس العالم نفسه الذي يعرفه، في مدينة أخرى لا يمكن أن تكون هي نفسها المدينة التي عاش فيها: فلم يسمع خبراً قطّ عن شهرة جيمي نارانخو أو عن وجوده، وهو الأمر الذي استغربته بلانكا للغاية، كما أنه لم يتخيّل وجود أناس من خايين يتعاطون الكوكايين، وأن لديهم مثل هذه الحياة الفوضوية والبوهيمية.

كانا قد اتفقا أن تجتمع به بلانكا بعد أيام في مدريد لمساعدته في

التحضير لمعرضه الذي طال انتظاره، أول معارضه الفردية في العاصمة. لكنها لم تتحلَّ بالصبر للانتظار حتى ليل الجمعة وهو التاريخ المحدّد لسفرها. أخذت القطار السريع قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة، ففي صباح الجمعة، في السابعة والنصف لأحد أيام الشتاء المدريدية الثلجية، نزلت من سيارة أجرة وفتحت باب المرسم الذي كان قديماً مخزن صيدلية بشارع أوغوستو فيغيروا، والذي أطلق عليه نارانخو على الفور اللوفت(*)، ولم يكن باستطاعتهما استئجاره سوى بفضل أحد شيكات الإغاثة العرضية لوالدة بلانكا.

على ضوء الشروق القادم من نافذة علوية وسيعة، رأت بلانكا نارانخو عارياً وراكعاً بجانب السرير، الذي عُلِّقت حوله -كستائر مسرحية- قطعٌ من القماش بلا أُطُر وملاءات ملطّخة بالطلاء. وعند سماع المفتاح رفع نارانخو رأسه عن الركبتين المفتوحتين لشخص يرقد بميل على السرير، صبيّ يافع جداً لم تستطع بلانكا تمييز وجهه، لأنها خرجت مسرعة دون حتى أن تغلق الباب، خوفاً من أنها لو أعادت النظر سترى مرة أخرى ما لم ترغب في رؤيته مطلقاً وما لن تستطيع نسيانه.

(*) بالإنكليزية في الأصل (loft) وتعني عليّة المبنى أو الشقّة. [م]

الفصل السادس

التقت بماريو لأول مرة بعد ذلك بقليل. وفي إهدائها على كتاب قدّمته له في ذكرى زواجهما الأولى، ألمحت بلانكا إلى الظروف المُحزِنة لذلك الوقت، وإلى امتنانها لماريو عبر أبيات لرافائيل ألبرتي تقول:

حينما ظهرت أنت

كنت أعاني في أعمق أحشاء

لكهف دون مَخرج ولا هواء

تعارفا -كما ذكرت هي ذات مرّة- خلافاً لكلّ التوقّعات، في إحدى المناسبات الاستثنائية التي يمكن أن تتقاطع فيها العوالم التي يسكنها كلاهما، فحتى في المدن الصغيرة والعواصم المُغرِقة في المحلّيّة مثل خايين، فإنّ الناس -على الرغم من احتكاكهم الواحد بالآخر في الشوارع- يعيشون كما لو أنهم في كواكب متباعدة في ما بينها، وحتى عندما يتلاقون فمن الصعب للغاية أن يصل الأمر إلى أن يرى واحدهم الآخر.

تطلّب الأمر أن يذهب ماريو إلى مكان لم يعهده من قبل مطلقاً، إلى ملهى افتُتح مؤخراً وحلّ محلّ دير قديم واسمه تشيناتاون، تنتشر فيه أشعّة

الليزر وتشكيلة من شاشات الڤيديو، وأعمدة صوتية مرتفعة وسوداء تشبه النصب التذكاري وتُصدِر أنغاماً زاعقة. تطلّب الأمر حفل توديع عزوبية لأحد مديري القطاعات لكي يذهب ماريو إلى هناك، ذاهلاً للغاية بسبب الموسيقا والأضواء والحشود حتى إنه لم يتمكّن من العثور على زملائه في المكتب -فقد خدعوه كالعادة- سحبوه عنوةً إلى ذلك الجحيم، بعد عشاء لا يُحتمل في حدّ ذاته، في الساعة الثانية صباحاً كان واقفاً على مشرب الفلوريسنت للملهى، يحمل كأساً من الجِن تونيك الفاتر، محاولاً سماع أو قول أيّ شيء للفتاة التي عرّفوه عليها منذ قليل، ولم يكن متأكّداً حتى (بسبب الضوضاء ومشروب الجِن) من تذكّره لاسمها.

أخبرته بلانكا لاحقاً -وهما يقارنان الذكريات في محاولة إعادة ترتيب الحلقات الأولى المُشوَّشة لماضيهما المشترك- أن الشيء نفسه حدث لها مع اسمه: ولكن ليس فقط، في حالتها، بسبب الموسيقا، بل لأن إدمانها في تلك الأيام للكحول والكوكايين والحبوب مع قلّة النوم أضعف ذاكرتها، خاصة ذاكرتها اللفظية، بمعنى أنها حينما تتحدّث تضيع منها كلمة فجأة، أو حين تهمّ بذكر اسم أحدهم تجد نفسها قد نسيته. تنقصها الكلمات، وتنقصها ساعات من حياتها، وتضيع منها أحياناً إحدى الدرجات عند نزول السلالم فتصاب بالدوار فجأة، وأدركت أنه لا يمكنها مواصلة الحياة على هذا النحو.

لم ينتبه ماريو وقتئذٍ إلى أن الڤيديو الذي عُرض على الشاشات كان تقريراً شاملاً عن معرض جيمي ن. الأخير، الذي افتُتح بنجاح كبير قبل أيام في قاعات صندوق التوفير، التي تردّدت منها الشائعات عن سفره المقبل بعد أسابيع إلى نيويورك (في الواقع، وتطلّعاً إلى السوق الأميركي،

كان الڤيديو ناطقاً بالإنكليزية). لم يبخل مكتب دعم الأعمال الثقافية للصندوق بنفقات إنتاج الڤيديو، كما شارك أيضاً المجلس الثقافي للرابطة الأندلسية في تمويله، لم يؤلّف سانتياغو أوسيرون(*) الموسيقا، كما قيل في البداية، ولكن أحد مساعديه المباشرين، كما تولّى مخرج إعلاناتٍ حائز على جوائز من عدّة مهرجانات دولية مهمّة التقاط صور الحدث.

في تلك الأثناء كانت بلانكا قد انفصلت عن نارانخو مرّتين أو ثلاثاً بنيّة القطيعة التامّة، ولكن في تلك الليلة، دون أن تستطيع منع الأمر، ولا حتى باستجماع كلّ قوى إرادتها، قصدت تشيناتاون على أمل رؤيته. وصلت شبه مرتجفة تؤنّب نفسها على استسلامها الوشيك، وتحوّل كلّ الخوف من لقائه -الذي لم تتمكّن من تبديده حتى بعد تجرّع كأس ڤودكا- إلى إحباط حينما علمت أن نارانخو قد غادر لتوّه. نجح عرض الڤيديو بكلّ المقاييس، أخبرها بذلك أحد تلامذته بنشوةٍ مخنّثة، وقد بقي في المكان لمراقبة العروض: «كان الجميع هناك، الهاي(**) جداً، المستشار الثقافي للبلدية، والمندوبة الإقليمية للمجلس، ونائب رئيس صندوق التوفير، وشخصيات VIP على أعلى مستوى!»، وظلّ تابع حركة هاري كريشنا الشاحب حليق الذقن يتفاخر بحماسٍ بالغ، في أرديته السوداء وحذائه الأسود ذي النعل المطاطيّ الضخم والصدغين الأزرقين من كثرة الحلاقة.

حاولت بلانكا جاهدة ألّا تؤجّج سخطها، وضغينتها المتوارية إثر سوء تقديره لها، وقتما بدأ نارانخو في تحقيق نجاحات ما كان له بلوغها دونها. لكنها كانت تعلم أن النجاح يدفع الفنّانين إلى الابتعاد عمّن دعموهم في

(*) Santiago Auserón (1954–...): يُعرف أيضاً باسم خوان بيرُّو، وهو كاتب ومغنٍّ ومؤلّف موسيقي وشاعر غنائي إسباني. [م]

(**) بالإنكليزية في الأصل (High) في إشارة إلى عِلية القوم. [م]

ظُلمات بداياتهم. ظلت تكِنّ لنارانخو حبّاً مفطوراً ومُستحوِذاً لم يعد مهمّاً فيه لا ذكريات المتعة ولا التلاقي الفكري القديم بينهما: كان القصور الذاتي الخالص للحب، وميله الراسخ للبقاء فوق كلّ شيء، وفوق العقل، والصواب، وحتى فوق رغبات بلانكا نفسها، التي تأكّد لها بعد المنظر الذي شهدته في المرسم بمدريد أنها لن تستطيع مضاجعة نارانخو بعد ذلك أبداً. سألته حينذاك -متسلّحة بالجرأة ومستعدّة للتفهّم والقبول- ما إن كان قد وقع في حبّ ذلك الصبي. لكنها لم تكن على استعداد لردّ فعله: أخذ نارانخو في الضحك، ناظراً إليها كما لو أنها بلهاء، كما لو أنه يعاود توبيخها على السذاجة والتصنُّع في نشأتها البرجوازية، وقال لها: «أُحبّ مَن؟! إنه محتال من شارع ألميرانتي».

كانت تعلم أنها لن تثق به بعد الآن، لكن لو عاود نارانخو البحث عنها وقطع على نفسه وعداً أمامها أو أقسم لها بين دموعه بالأيمان الكاذبة: «الأمر ليس كما تخيّلتِه» -كما لو أنّ الأمر يعود إلى مخيّلتها وليس إلى ما رأته- لصدّقته بلانكا معارضةً بشدّة لكرامتها وذكائها أو لتظاهرت بتصديقه، بالقدر الكافي الذي يجعلها قادرة على الاستمرار في خداع نفسها حتى خيبة الأمل التالية. كانت تنام بالمنوّمات وتصحو بالمنبّهات، وتجرجر نفسها طوال اليوم اعتماداً على السجائر والڤودكا والقهوة، ذاهلةً في ضبابٍ من الوَهن والتوعّك الجسدي واليأس. تستيقظ في الخامسة صباحاً ممدّدة على الأريكة أمام التليفزيون المفتوح، وفي بعض الأحيان تصطدم بإطارات الأبواب أو زوايا الردهة، فتدرك حينئذٍ أنها تترنّح مثل السكارى.

في تلك الليلة، على مشرب الحانة في تشيناتاون، لم تلاحظ وجه

ماريو إلا لماماً، ولم يكن وجوده ليترك أثراً لديها، لولا أنها بعد محادثة مفكّكة وصارخة عملياً -لم تتوقّف خلالها عن البحث حولها، فربما يظهر نارانخو- بدأت تشعر بالتوعّك، وظنّت أن ما يؤذيها هو الحرارة الرطبة للجموع، فالتمست من ماريو العذر لحاجتها إلى الخروج لتستنشق بعض الهواء الطَلق وأنها ستعود على الفور. وبعد دقائق، متململاً من انتظارها ومنزعجاً من الضوضاء والناس، خرج ماريو إلى الشارع عازماً على العودة إلى منزله. وجدها حينئذٍ على الرصيف، منحنيةً بين سيارتين، ضاغطة على بطنها بيد وبالأخرى تحجز شعرها، وهي تتقيّأ وتئنّ بارتجافاتٍ منتظمة تهزّ جسدها كلّه.

رفع شَعرها إلى الوراء ومسح بمنديل عرق وجهها اللامع الغزير. يمرّ كثيرون على باب البار، لكن أحداً لم يلاحظها على ما يبدو. قادها إلى درجة بعيدة إلى حدٍّ ما وساعدها على الجلوس. للحظة ظنّت أن نارانخو هو من يُساعدها، وأرخت ذراعيها حول رقبته وظلّت تعانقه وهي ترتجف بينما تردّد اسمه، الذي يجهله ماريو. أبعدها بلطف، ليس فقط لحرجه من تلقّي لمسات حبّ تخصّ شخصاً آخر، ولكن أيضاً لأن أنفاس بلانكا لم تكن طيّبة الرائحة: لها رائحة حمضية تعود للكحول والنيكوتين والقيء.

بعد مرور دقائق، باتت أهدأ، فرفعت جسدها للخلف وهي مغمضة العينين، وظلّت ضاغطة على يد ماريو. كانت يداها، على الرغم من نعومتهما التي استحسن ملمسها، شديدة البرودة واللين. وفجأةً غرزت أظافرها في يده وتجمّدت ملامح بلانكا: أثناء بحثها عن شيءٍ ما، السجائر بالتأكيد، أدركت أنها ضيّعت حقيبتها. اضطربت كما هو الحال في حالات الذعر العاجز التي تأتي في الأحلام، وأخذت تعدّد بهذيانِ الأشياء التي

ظنّت أنها ضيّعتها، رغم أنها لم تحرّك ساكناً للبحث عنها أكثر من تلمّس ما حولها كالعميان: مفاتيح شقّتها، البطاقة الشخصية، بطاقة الصرّاف الآلي، الولّاعة الفضّية التي أهداها لها شخصٌ ما، اسم ذَكَر آخر...

سرعان ما عثر ماريو على الحقيبة. وجدها ملقاةً في المكان نفسه حيث رآها هي، بجانب الرصيف، بين السيارتين، ملطّخة بالقيء. مرَّ عليها الناس، السكارى الذين يطوفون بباب البار، مرّوا فوقها دون أن ينظروا إليها، اعتقد ماريو أنهم وطئوا القيء باللامبالاة نفسها التي كان من الممكن أن يطؤوها بها لو لم تتمكّن من النهوض، كان ينتابه شعور مرتبك بالعدائية الشديدة تجاه المتردّدين على البارات الليلية، ليس فقط تجاه طريقتهم في الملبس والحديث والشرب ورفع الكؤوس والسجائر لأعلى، بل هو بنسبة كبيرة عداءُ من ينهض باكراً للساهرين، وهو عداء شديد التجذّر داخله منذ الأزل؛ ربما موروث من والده، الذي ظلَّ طوال حياته يصحو قبل الشروق ليذهب إلى الحقل، والذي يقبع الآن في إحدى دور المسنّين في ليناريس.

ورث من أبيه أيضاً الولع بالنظافة، وبمنديل ورقي نظّف الحقيبة قبل أن يعطيها لبلانكا. ارتجفت يداها بشدّة حال فتحها، فانسكبت محتوياتها ولم تجد ما تبحث عنه، السجائر والولّاعة: عاودت ذِكر أنها من الفضّة وماركة «زيبو»، وشعرت بالندم مرة أخرى لخسارتها. ركعت على الرصيف لتبحث عنها بأصابعها الطويلة الخرقاء المتوتّرة، دون أن تتوقّف عند أقدام مَن يمرّون عليها، متحسّسة دون تَبصُّر، ودون أن ترى ماريو أيضاً. بحثت عنها كما تبحث عن كل شيء دوماً، الأثمن والأتفه، حتى حينما عايشت ماريو لفترة طويلة: بدت متوتّرة للغاية، كما لو أن الأشياء تتآمر في ما بينها لتسخر منها، فوسط الفوضى داخل الأدراج، وخوفاً من فقد ما

تحتاج إليه بشدّة دون رجعة: الكتاب الذي عليها قراءته، الأوراق الأولى من شيء بدأت أخيراً في كتابته، والذي بفقدانه تعود دائماً إلى نقطة البداية، إلى تشوّش مُحبِط في مشاريعها التي لم تُثبَّت في الواقع بشكلٍ كامل قطّ. وجدت أخيراً سيجارة، واحدة ومثنيّة، ووضعتها على شفتيها بينما تواصل البحث عن الولّاعة، لكن ماريو كان من أسعفها وأشعلها لها.

قال لها: «إن دخّنتِ فسوف تسوء حالتك».

- مستحيل. لن أكون أسوأ من ذلك.

- هيّا يا امرأة، اهدئي! سأحضر لك كوباً من الماء.

- لا تذهب (تشبّثت به بلانكا)، لا تتركني بمفردي!

كلاهما سيُفاجأ عند معرفة أنه بعد قليل لن يتركها بمفردها مجدّداً. في تلك الليلة أخذها في تاكسي إلى منزلها -عرف العنوان عن طريق مظروف وجده في حقيبتها- بعد أن قالت له إنها لا تتذكّره، وعند وصوله إلى البوّابة طلبت منه بلانكا أن يصعد معها، متشبّثة به بمشاعر الضيق نفسها للّحظة السابقة، حين أخافها أن يذهب ليُحضر لها ماءً. الشقّة، التي لا يزال جزء منها الورشة القديمة لجيمي ن.، بدت لماريو كارثية، خليطاً عفناً من القذارة والفوضى، من الأوساخ المنزلية ومشهدية غامضة في بوهيميتها، كما لو أنها تعود لأحد الأفلام التي تعرض بؤس الفنّانين القدامى. تفقّدتها بلانكا بالكامل، تاركةً كلّ الأنوار مضاءة، كما لو أنها تخشى وجود شخصٍ ما، أو كما لو أنها لا تزال تأمل في عودة نارانخو. في غرفة النوم، حيث تُرى -كما في باقي الغرف- لوحات قماشية ملقاة بجانب الحائط، وملصقات، وجرائد في كلّ مكان، كان السرير -الكبير جداً- مبعثراً، كما وجد ماريو الملاءات في منتهى القذارة. على طاولة السرير كانت هناك منفضة سجائر

مليئة بالأعقاب، وكوب يتوسّطه الماء، وزجاجة من الكبسولات تفحّص ماريو ملصقها دون أن يفارقه القلق. على الحائط فوق السرير، هناك لوحة قماشية كبيرة غير مؤطّرة، ومثبّتة بشكل اعتباطي بالدبابيس والمسامير، تعرِض بتشوّش شيئاً استغرق ماريو بعض الوقت ليتعرّف على كونه جسداً، ثم جسداً أنثوياً عارياً له وجه، رغم تشوّهه بضربات الفرشاة كما لو أنه منعكس على مياه مضطربة وقذرة، كان وجه بلانكا. لسببٍ ما أخجله وجوده أمام المرأة ولوحتها التي تكشف عريها في الوقت نفسه، رغم أن ذلك العري يمكن التعرّف عليه بصعوبة، نظراً لأسلوب الرسم، الذي تجرّأ ماريو على تخمين كونه تعبيرياً، أو ربما لعدم قدرة الرسّام على التقاط التشابه بينهما بشكلٍ صحيح.

جلست بلانكا على السرير، وبحثت في درج طاولة السرير ثم أغلقته فجأة، نقّبت في منفضة السجائر حتى نجحت في الوصول إلى سيجارة سليمة عملياً، وجب عليها إطفاؤها الليلة الماضية بعد أن أشعلتها مباشرةً. للدخان البارد والملاءات كثيرة الاستعمال رائحة مقزّزة. خامر ماريو، الذي لا يحب زيارة منازل الآخرين، شعورٌ سيّئ باقتحام خصوصيّاتها. كيف يحقّ له أن يكون هناك، مع امرأة لا يعرفها، في الثانية فجراً، وفي غرفة نوم تحمل إشارات واضحة لوجود ذكر آخر، ماذا سيفعل إن تبيّن أن المرأة، بلانكا، التي بدأ يُعجب بها، قد نسيته تماماً. رآها عبر عتبة غرفة النوم، لأنه لم يجرؤ على الدخول، تُغرق رأسها بين ركبتيها، حال جلوسها على حافة السرير وبخيط من الدخان لا يزال متصاعداً بجانبها. لاحظ أنها ترتعش: وخاف أن تتقيّأ مجدّداً. لكن سبب الارتعاش هذه المرّة هو بكاؤها المصحوب باهتزازات عنيفة صامتة، دون أنين ولا دموع، نائية للغاية عن

ماريو مثل السيجارة التي بين أصابعها. وخوفاً من أن تُحرق الملاءات اقترب منها ماريو بحياء وحذر، أخذ منها السيجارة وأطفأها بقرف في منفضة السجائر. رفعت بلانكا عينيها لرؤيته، وبدا أنها لا تتذكّر من هو. للحظات تحوّل تعاطف ماريو إلى حنان. الآن يراها أجمل بكثير من مرآها منذ ساعات حينما عرّفوه عليها.

- ما رأيك إن أعددت قهوة؟!

قال لها، محاولاً أن يبدو صوته طبيعياً، بل وساكناً، صوت رجل يعتاد الخروج ليلاً ويتعامل بودّ مع النساء والفنّانين. تمكّنت بلانكا من تثبيت بصرها عليه وحرّكت رأسها في إيماءة شبه موافقة.

في المطبخ لم يجد أيّ طبقٍ أو ملعقة أو فنجان إلا وكان متسخاً، وهي على تلك الحالة منذ ما لا يقلّ عن أسبوع. بات من الصعب تحديد المكان الدقيق للحوض من بين كومة الأطباق القذرة. عندما تمكّن من انتشال غلّاية القهوة وشرع في غسلها، اكتشف ماريو أن المياه الجارية مقطوعة. وبالطبع لم يكن في الثلّاجة زجاجات مياه مُخزّنة تحسّباً لمثل هذه الظروف. الشيء الوحيد الذي وجده في الثلّاجة هو عبوة من السمن الفاسد وعلبة مايونيز لم تُمَسّ وطماطم عفنة. فبالنسبة لماريو -شأن كل الأشخاص المنظّمين للغاية- بعيداً عن إدهاشه، تعيد له هذه الفوضى ثقته في عاداته وتكاد تسعده. ذهب إلى غرفة النوم ليخبر بلانكا أنه لم يتمكّن من صنع القهوة، فوجدها نائمة، على جنبها، في مواجهة ضوء طاولة السرير، ممسكة بالوسادة بكلتا يديها، ضامّةً رجليها جهة بطنها، وتتنفّس بفم مفتوح والعرق يلمع فوق شفتها العليا. حتى إنها لم تخلع حذاءها. بحرص بالغ خلعه ماريو، وأخذ يسحب اللحاف ببطء حتى ذقنها مخافة إيقاظها، مبتهجاً

لمرآها نائمة بهجة ضاعفها كونها مختلسة. فكّر أن يترك لها رسالة، على طاولة السرير أو حتى على مرآة المغسلة، كما شاهدهم يفعلون في بعض الأفلام، لكن لم يكن يحمل معه ورقة ولا قلماً، وعلى كلّ حال لم يخطر بباله شيء ليكتبه. رَجّح فكرة ترك إحدى بطاقات الاتصال الخاصة به، لكنه عدل عنها في الوقت الملائم؛ إذ يُمكن أن يُؤوَّل الأمر، كما اعتقد بعد ذلك، إلى شيء بين الوقاحة والاستعراض. مكث لدقيقة أو اثنتين ناظراً إلى بلانكا وهي نائمة، دون أن يعرف ما عليه فعله، وما الذريعة التي من الممكن اختراعها كي لا يفقد هذا الرابط العرضي لتلك الليلة. لكنه يفتقر إلى الخبرة والحيلة، وفجأة خشي الظهور المفاجئ للرجل الذي تفوّهت باسمه مرّة أو اثنتين في هذيانها، صاحب قطع الملابس الذكرية الثلاث أو الأربع الملقاة في المنزل، مما سيضعه في موقف ملتبس وخطير أيضاً.

ضجيج المصعد هيّج قلبه. حينما اقترب من بلانكا ليطفئ ضوء طاولة السرير، شعر برغبة في تقبيل شفتيها. فتحت عينيها وهي نائمة، وارتجفت مردّدة اسم الآخر. أطفأ ماريو ضوء غرفة النوم وأتبعه بإطفاء إضاءة كلّ غرف المنزل الأخرى، بنزعته الفطرية المتأصلة للتوفير. كانت الساعة الثالثة فجراً حينما خرج إلى الشارع. أخذ يمشي باتجاه منزله، مأخوذاً بعض الشيء بغرابة كونه مستيقظاً وفي الشارع في تلك الساعة، وشعر بشعور جديد وبرضا عن النفس، كما لو أنه يعيش في مسودّة مغامرة غير مؤكّدة. ثم أدرك حينئذٍ أنه لم يخطر بباله تدوين رقم هاتف بلانكا.

الفصل السابع

أمضى عطلة نهاية الأسبوع متسائلاً عن الخطوات التي يمكن اتخاذها بعد ذلك، ما هي الطريقة المثلى للتقرّب من بلانكا مرّةً أخرى. ففي الثامنة والعشرين من عمره لا تزال تجربة ماريو العاطفية محدودة للغاية. حتى الخامسة والعشرين كان لديه خطيبة يخطّط للزواج بها، لكنها تركته قبل الزفاف بعدّة أشهر، بدافع الملل لا شكّ، رغم أنها ادّعت أنها وقعت في حبّ آخر. يحب الجميع إضفاء معانٍ نبيلة على أفعالهم، ولا بدّ أن خولي -خطيبة ماريو التي كانت تواعده من سبع سنوات- اعتقدت أن عدم الإخلاص في الحب مبرّر أقوى وأكثر رقيّاً من الشعور بالملل: كانا طرفَي إحدى هذه الخِطبات الأزلية بالمقاطعة، التي تبدأ في نهاية المراهقة وتنتهي بعدها بعقد من الزمان بالزواج المحكوم عليه مسبقاً بالسُّبات، فهو أقرب -بحُكم حتميته وثبوته- إلى عالم الطبيعة أكثر منه إلى عالم المشاعر والأفعال البشرية، إحدى تلك الخطبات حيث المستقبل أكثر ثباتاً من الماضي، ليس فقط بالفستان الأبيض على باب الكنيسة، والشقة ذات الأثاث الجديد من البلوط المقلّد، وشهر العسل في جزر الكناري أو مايوركا، والحَمل الفوري، ولكن أيضاً بشكٍّ خفيّ ومتبادل في أنّ ثمّة

خدعة في الأمر، وبالمرارة المملّة لنزهات الآحاد، بعربة الأطفال أو دونها، والخِدر العائلي الحلو الأشبه بالنعاس بعد الأكل.

فأن يصبح لدى خولي تلك النزاهة غير المعهودة للانفصال عن ماريو، وأن تبرّر ذلك باختراع خيانة ليس لها وجود، ما هي إلا مؤشّرات على درجة الملل وخيبة الأمل التي غرقا فيها بمرور السنين. في البداية، عانى ماريو بشدّة من شعور المهانة إثر تخلّيها عنه، ومال إلى الخلط بين غيظه إثر رفضه والمعاناة في الحب. كتب بعض رسائل التوسّل أو التوبيخ، التي لا تخلو من الاقتباسات شائعة الذكر في كتب الأدب، تأمل فيها تقلّبات النساء، وتجوّل في بعض أوقات الظهيرة في المبنى حيث تعمل خطيبته السابقة، محمّلاً بالفكرة الروائية المتمثّلة في مفاجأتها وهي بصحبة غريمه، وهي الكلمة المستخدمة على نطاق واسع في المسلسلات التلفزيونية بأميركا الجنوبية. كما خشي أيضاً العار الريفيّ الغامض: أن يصير عانساً، أن يصير صبياً مُسنّاً، كما تقول والدته.

بعد ذلك وبمرور العطلة الصيفية بدأ يكتشف أنه أمضى أياماً كاملة دون أن يتذكّرها، وأدرك بعد ذلك بقليل أنه لم يفتقدها البتّة. بدت له الشقّة التي كان قد اشتراها ليعيشا فيها معاً مكاناً رائعاً لأن يعيش فيه بمفرده: فقد نشأ في منزل قروي كبير وغير مريح، له رائحة الإسطبل والبرد القطبي في فصول الشتاء، يمتنّ ماريو للماء الساخن ويقدّره، وللمراحيض التي لا تشوبها شائبة، ولرفاهية التدفئة المركزية. اختار الأثاث حسب ذوقه، رغم انزعاج العاملين في المتجر الذين حدجوه بنظراتٍ متشكّكة لأنه لم يكن معتاداً ولا مستحبّاً أن يقوم رجل بمفرده بتجهيز أثاث منزل، وأن يفعل الأمر بذلك القدر من الاهتمام. كما فرض على نفسه تقشّفاً صارماً ليتمكّن

من سداد أقساط الرهن العقاري دون عناء، كما أصبح عضواً بنادي الڤيديو وحلقة القرّاء. في ذلك الوقت استعاد اهتمامه بالتاريخ الذي لازمه فترة دراسته: فاشترى، بالتقسيط، كتاب «تاريخ إسبانيا» لمينّنديث پيدال، وقرّر قراءته من الفصل الأول حتى الأخير (طالما تذكّر أنه كان سيبدأ في قراءة الفترة المظلمة لحُكم القوط الغربيّين حينما تعرّف إلى بلانكا). نال التقدير في مجلس المحافظة في سنواته الثلاث الأولى. كما بدأ العمل لبضع ساعات مسائية في مكتب لفنيّي حساب الكميات الذين أحالوا لتوّهم بعض الزملاء القدامى إلى التقاعد، وخرج مع أحدهم في بعض الليالي للشرب في خمّارات وسط البلد، مع فكرة مشوّشة عن السُّكر والمغازلة. لكنّهم لم يتمكّنوا قطّ من فعل أيٍّ من الأمرين، وبعد فترة من الوقت، من ملل أحدهما وإحباطه من الآخر، توقّفا عن الخروج معاً، وبعد ذلك بقليل صار زميل ماريو هذا «خطيباً»، كما يقولون في خايين، خطب سكرتيرة المكتب، فتاة ممتلئة إلى حدٍّ ما، ومتواضعة الجمال للغاية، لذا أسرَّ ماريو شيئاً من الشفقة عليه في نفسه. من الأفضل البقاء وحيداً على الاستسلام دون رغبة تُذكَر لمرأة مثلها.

أخذ يُدبّر معيشته بحرص بالغ حتى إنه كان بإمكانه ادّخار راتبه الآخر بأكمله. يعيش والداه، المتقاعدان الآن، بمفردهما في القرية، وشقيقه الوحيد، الذي يكبره بثماني سنوات، يعمل نقيباً في الحرس المدني وخدمته العسكرية في إيرون، شعر ماريو بوجوب جلب والديه للعيش معه في خايين، ورغم أنه يُكِنّ لهما الكثير من المشاعر الطيّبة وخاصة لأمه، إلا أنه أدرك أنهما على مشارف صعوبات الشيخوخة، وأنه في غضون سنوات قليلة ستصبح الحياة بصحبتهم استعباداً. ويوماً ما، على غير العادة، اتصل

به والده في المكتب، وأخبره بما لا يخلو من الوقار بأنه ووالدته سيلتحقان الشهر القادم بإحدى دور الإقامة التابعة للضمان الاجتماعي في ليناريس.

أسعد الخبر ماريو للغاية حتى شعر أنه وغد. وقال بتأثّر، حابساً دموعه وضيق صدره، إنه ما دام بإمكانه الاضطلاع بأمورهما فلن يحدث ذلك. حينما أخذت أمه الهاتف، كانت تبكي: ذلك أفضل للجميع، وكرّرت كلمات الأب نفسها، أنه بذلك لن يصير أيٌّ منهما عبئاً.

في عطلة نهاية الأسبوع تلك سافر ماريو بالسيارة إلى القرية، واصطحب والديه إلى محلّ إقامتهما الجديد، الذي كان مكاناً نظيفاً وفسيحاً وكئيباً، به كنيسة حديثة وغرف نوم تشبه النُّزُل، بنشاط مذهل في المقصف وفي الصالات الاجتماعية.

أقبل ليل الأحد بينما يقود سيارته عائداً إلى خايين، مستمعاً بحزن إلى الراديو الذي يبثّ نتائج المباريات الرياضية وإعلانات السيجار والكونياك. لكن ما شعر به هو حزن الحرية الشفيف والصحّي في جوهره، وحين دخل شقّته تلك الليلة بدا له للمرة الأولى أنها ملكه بالكامل، تماماً كحياته المُقبلة، فهو لم يعد مكبّلاً بعلائق شبابه المبكّر -والديه وخطيبته والذكريات القمعية لكابرا دي سانتوكريستو- التي من المؤكّد أنها مضت بلا رجعة، إذ لم يعد هناك أحدٌ ليزوره. وبقبول هادئ لقراراته الشخصية العملية تفحّص الأثاث الذي لا يزال قليلاً، والمطبخ النقي، صفّ مجلدات كتاب «تاريخ إسبانيا» لمينّينديث بيدال، وغرفة النوم التي كان من المقرّر لها أن تكون غرفة نوم الزوجية والتي سينام فيها الآن بمفرده، والمصابيح القليلة التي جرى تركيبها بالفعل. تعشّى جالساً إلى طاولة المطبخ، دون أن يهنأ بالإهمال المعيب لمن يعتادون تناول الطعام بمفردهم وبأي طريقةٍ

كانت. نظّف المائدة من كلّ شيء بعد العشاء وغسل وجفّف الأطباق والكوب وأدوات المائدة. بدأ في مشاهدة فيلم في التلفزيون وغطَّ في النوم على الأريكة قبل انتهائه. في منتصف الليل أيقظه الهاتف. فقط حينما تيقّن من أنها مكالمة خاطئة أدرك رغبته في التحدّث مع شخصٍ ما في ليلة الأحد تلك. أغلق التلفزيون، ورتّب غرفة طعامه قليلاً -على الرغم من عدم وجود أي شيء تقريباً في غير محلّه- وغسل أسنانه، وشطف الفرشاة، وأغلق أنبوب المعجون جيّداً، اختار بيجاما نظيفة من الخزانة التي أصبحت الآن كبيرة جداً، ودخل بسرور مفترشاً الملاءات التي غيّرها ظهر الجمعة قبل سفره إلى قريته. أطفأ النور، معتقداً أنه لا يزال ميتاً من النعاس، وبينما كان مستلقياً في الظلام أدرك لسببٍ ما أنّ شعوره بالنعاس قد تبدّد. عاود إشعال الضوء: وجد أنه نسي تشغيل المنبّه، وهو الإجراء الاحترازي الذي لا يغفل عنه أبداً، وإن لم يكن ضرورياً، فهو يستيقظ تلقائياً كلّ صباح قرابة السابعة والربع.

بعد أسابيع، أثناء اصطفافه أمام نافذة أحد البنوك، مستغِلاً نصف الساعة الشاغرة المخصّصة للإفطار، التقى بخولي، في البداية لم يعرف أيٌّ منهما ماذا يقول، هي لاحمرار وجهها وتوتّرها، وماريو لأنه بمرور وقت قصير جداً كان قد فقد كلّ اهتمامه بها. رآها أقل شباباً من عمرها -مبتذلة وقديمة بعض الشيء- بتنّورتها ذات الثنيات وحذائها البنّيّ ذي الرقبة، تحمل ملفّاً بلاستيكياً أسود بشعار ذهبيّ الحروف لوكالة ومدرسة «نويسترا سنيورا دي لا كابيثا» لتعليم قيادة السيارات. دردشا لدقائق، حتى جاء دور ماريو في الوصول إلى النافذة. أخبرته خولي -فجأة بدا له اسمها سخيفاً- أنها تتذكّره كثيراً، وأنها لا تريد أن يفقدا كل تواصل بينهما: يمكنهما الاتصال

من وقت إلى آخر، والدردشة كالأصدقاء القدامى. أبدى ماريو موافقته، فهو يتمتّع بمهارة إرجاء الموعد الذي اقترحته إلى أجل غير مسمّى. من المريح مغادرة البنك وعدم رؤيتها مجدداً. لو لم تنفصل عنه خولي لكانا الآن متزوّجين منذ شهر. وبينما هو عائد إلى المكتب فكّر: كم هو غريب هذا الأمر! كنت على وشك الزواج من مجهولة، عانيت بسبب امرأة لم أُعجب بها حقاً، وأمضيت معها سبع سنوات دون أن أتوصّل إلى معرفة شيء عنها.

لم يعاودا اللقاء. من الممكن أنها انتقلت إلى مدينة أخرى، أو عادت إلى القرية: كانت تقول دوماً إن المدن الكبيرة للغاية والصاخبة كخايين تزعجها. لسنوات بدا لماريو أن خولي مُحيت من حياته وذاكرته دون أن تترك أي أثر، ودون تدخّل في القَدر الذي قاده نحو بلانكا. فقط بعد ذلك بوقت طويل جداً، وفي ذروة محنته الخانقة، عاود التفكير في خطيبته الأولى، وفي مستقبله الذي لم يكمل معها، وخشي أنه بسبب سوء فهم جسيم، وبسبب خطأ في قوانين العالم، وضع له أحدهم سيرة ذاتية لا تخصّه، بجعله يتزوّج من امرأة من الواضح أنها تناسب شخصاً آخر، ربما ليس الرسّام نارانخو ولا أُونِّسيمو عديم الروح، ولكن على أي حال شخصاً آخر، ليس هو: ماريو، لكن آخر، أطول، أكثر شُقرة، أكثر ثقافة، أكثر حباً للسفر، أكثر خيالاً، أكثر تشابهاً معها، ليس رسّاماً هندسياً لمجلس مقاطعة خايين لا تتوافق تطلّعاته الحياتية مع تطلّعات بلانكا في الواقع، بغضّ النظر عن مدى رغبتهما في السعي للتوافق ولتصديق ذلك، ولكنها قد تتوافق مع تطلّعات سكرتيرة إدارية، مع نوع من النساء تجسّده خولي تماماً، امرأة لن تعاني أبداً إن لم تستطع الذهاب لمشاهدة عروض بينالي في البندقية

أو إلى العرض الافتتاحي لأوبرا «مدام بترفلاي» في الكوفنت غاردن(*) بلندن، وفضلاً عن ذلك، لا تعرف شيئاً عن الفن الحديث أو الأوبرا، أو عن الكوفنت غاردن، دون أن تكون لهذا السبب خرقاء أو موظّفة بيروقراطية، كما قالت بلانكا مرات عدّة، وكأنه عار أن تكون موظّفاً.

في أسوأ الأيام، في أحلك خطاباته ضد نفسه، في العديد من ليالي السُّهاد، ومن الاستلقاء في الظلام على مسافة عصيّة من بلانكا، كاد يُمزّق ماريو التفكير في أنه وجب عليه الزواج من الأخرى، من خولي، أنه وجب عليه الذهاب إلى الموعد الذي اقترحته حينما التقيا في البنك: اتهم نفسه بالعجرفة الحمقاء، والعنجهية الذكورية، والطموح، والتطلّع إلى ما لا يتوافق معه، تخيّل نفسه وهو يهجر بلانكا ببرود ليذهب بحثاً عن خولي، وخمّن أنه لو لم ينفصل عنها لصار لديه الآن ابنٌ أو اثنان، وفي هذيانه المحموم بات تجسيده لتلك الحياة مع أخرى شديد الوضوح مما أشعره بشكل ميئوسٍ منه بعدم إخلاصه لبلانكا. وقتئذٍ أخافه خاطرُ عدم تعرّفه عليها، وبآليةٍ غيورة بديلة ومُعزِّية استسلم للذكريات اللامحدودة لكل الأشياء التي استمتع بها بفضلها ومعها، وقارن سنوات الحماس والغرام تلك بثلاث من الاستقرار الزوجي والأبوي، التي كان ليُكملها بصحبة خولي، في غاية الروتينية مثل سنواته الثلاث بالمجلس الإقليمي.

لا يتعلّق الأمر فقط بجنونه ببلانكا، التي أعجبته أكثر من أيّ امرأة أخرى رآها في الواقع، وفي الأفلام، وفي الإعلانات التجارية، أو بتأجّج رغبته فور تذكّرها عارية أو ملامسته لها في المطبخ، بينما يغسلان الصحون:

(*) تقع حديقة Covent Garden في حيّ ويست إند الذي يُعدّ مركز المسارح الرئيسي والترفيه في مدينة لندن. [م]

الأمر أنه لم يُحبّ سواها طوال سنين حياته، حتى إن فكرته عن الحب لم تنفصل عن وجود بلانكا، ولأنه ذاق الحب ولم يعد يعرف الحياة من دونه، ولم يتخيّل أن نساء أخريات باستطاعتهن تقديمه له، لم يملك خياراً آخر لمواصلة الحياة سوى بالحياة معها دوماً، مهما كانت الظروف، أدرك في النهاية، مستشعراً هزيمته، وربما عدم استحقاقه، وحبّه أكثر من أيّ وقت مضى: الظروف التي تمليها عليه بلانكا، أو تلك المجهولة أو الظلّ الذي حلَّ محلّها.

أكثر ما لام نفسه عليه بمرارة هو افتقاره لليقظة والدهاء، وثقته الزائدة ليس في حب بلانكا ولا في إخلاصها -والتي لن يُلقي عليها اللوم مطلقاً- ولكن في الطبيعة الذكورية، أو في النسخة الخسيسة المتمثّلة في ذلك الشخص الذي سمع ماريو اسمه أو قرأه عدّة مرّات دون أن يعير الأمر انتباهاً، دون أن يدرك أن الخطر الوحيد والحقيقي ينبع منه. هل رأى اسمه لأول مرة في أحد الملحقات الثقافية التي تطالعها بلانكا بتلهُّف شديد صباحات السبت، أثناء الإفطار؟ هل سمعه على شاشة التلفزيون، في ذلك البرنامج الذي يُدعى: متروپّوليس، الذي ينام دائماً في منتصفه؟ أم أنها شفاه بلانكا المقدّسة هي التي تفوّهت بمقاطع اسمه أول مرة، بكرمها نفسه، التوقيريّ وغير المُستحقّ بالكلّيّة، الذي كرّرت به العديد من الأسماء التي لا تثير في ماريو سوى أصداء الجهل أو العداء؟ أسماء فنّانين، ومصمّمي سينوغرافيا، ومصمّمي رقصات، وأدباء بائسين ومنتفخين ممّن تتقرّب منهم بعد مؤتمراتهم طالبةً منهم بصوتها الدافئ والخاشع إهداءً، أو دقائق للحديث، رجال آتون من مدريد بأنفاس لها رائحة التبغ والويسكي، وبعيون تتجه دون حياد صوب شقّ نَهدَي بلانكا،

أو تنظر خلسةً وعلى استحياء بينما تعطيهم كتاباً ليوقّعوه لها، كما لو أنها تقدّم لهم حياتها بأكملها على صينية؟

شحذ الغِلّ ذاكرته، أول مرة سمع فيها اسم لويس أُونّسيمو كان أحد أيام الثلاثاء من شهر حزيران، يوم شبيه بجميع الأيام الحلوة والرتيبة لسعادته المفقودة، حتى إنه تذكّر الطبق الأول الذي أعدّته بلانكا حينذاك: شوربة الڤيشيسواز، وقت عرضهم تقريراً في الأخبار عن فريدا كالو أفزعه بشدة، إذ إنه حينذاك كان يجهل أن بلانكا -في نوبةٍ من تقلّبات مزاجاتها الجمالية النزقة- بين يوم وليلة، فقدت اهتمامها بلوحات فريدا كالو، وسرعان ما ستنبذ -مأخوذةً بشدّة نحو جاذبية أُونّسيمو الفكرية- ما أسماه باحتقارٍ فنّانُ الوسائط المتعدّدة البالنسيّ: «الوسائطَ التقليدية»؛ فقد انتهى عصر الأشكال الكلاسيكية، والرسم على القماش، وبالألوان الزيتية، حتى بالأكريليك، عصر الرسّام بالألف واللام بنخبويّته وحصريّته، بات من مخلّفات القرن التاسع عشر، محاكاة ساخرة يجسّد قمة بؤسها الحالي جيمي ن. العتيق.

هذه الأشياء سمعها ماريو من لويس أُونّسيمو خلال غدائهم الأول، الذي تناولوه يوم قدّمت بلانكا كلّاً منهما للآخر، وعلى الرغم من أنه لم يفهم شيئاً، وأثار نفورَه مظهرُ الفنّان وكذلك لكنتُه المبالغ فيها، استقبل ماريو إهانة خصمه السابق نارانخو برضاً دنيء، ولاحظ بحنان وشفقة وبما يشبه الندم أن بلانكا حنت رأسها حينما سمعت هذه الكلمات وزمّت شفتيها، ولم تجرؤ على الدفاع عن الرجل الذي ظلّت مفتونةً به حتى وقتٍ ليس ببعيد.

بوضوح أليم، ومرارة مُستعادة لعدم تخمينه في الوقت المناسب،

فَهِم ماريو عندما فات الأوان أن لا مبالاة بلانكا المفاجئة بفريدا كالو -التي أراحته كثيراً- مؤشر على أنها قد وجدت موضع إعجاب جديداً ومُبالغاً فيه: فقد ذاكرت كلّ شيء عنه من مجلّات الفنون ومن ملحق جريدة البايس، وقرأت التقارير عمّا أسمته هي عروضه الأدائية وأعماله المركّبة، وبالحماسة نفسها حديثة التحوّل استحسنت تصريحاته المعلَنة والفضائحية في غالب الأحوال، ورأسه الحليق، ولحيته التي يبقيها دائماً لثلاثة أيام، وملابسه السوداء، والوشم الشرقيّ على ظهر يده اليمنى، وخواتمه. ظنّت -وبشعور لا يُحتمل من التعرّض للغبن والتجاوز- أنه قد لا يتسنّى لها أبداً حضور أحد العروض الأدائية أو معارض الأعمال المركّبة للويس أونّسيمو، وتخيّلت معجزة الحديث معه كهدية مستحيلة، حديث طويل للغاية، لليلة كاملة تتخلّلها سجائر وكؤوس، عن الفن، والأفلام التي لا يعرفها أحد في خايين، وعن الكتب التي لم يقرأها غيرها في تلك المدينة. وفجأة في يومٍ ما، أحد تلك الأيام الرتيبة اللطيفة التي يحبها ماريو كثيراً، قرأت بلانكا في الجريدة المحلّيّة أن لويس أُونِّسيمو يُحضّر لمعرض ومؤتمر في قاعة الثقافة لمصرف التوفير، واستطاعت التحدّث إليه، وعرضت عليه مساعدته في تنظيم وتثبيت أعماله، بحماس وانتشاء وعزيمة وإلحاح. وفور رؤيتهما معاً، بعد ساعتين من تحمّل ترهات أُونِّسيمو وطريقته المثيرة للغثيان في تناول الطعام -من اللافت أن بلانكا (صعبة الإرضاء في كلّ شيء) لم تتوقّف أمامها- فكّر ماريو لوپِث برهبة وتبصّر أن ذلك الشخص غير المهندم سيأخذ منه زوجته.

الفصل الثامن

يا لغروره حين اطمأنّ لحب بلانكا! ويا لعماه وخُرقه حين اعتقد ذات مرّة أن الخطر قد زال، أن حياتهما المشتركة ستستمرّ دوماً بهدوء كاستمرارية عمله بعد اجتيازه الاختبارات التنافسية! ربما كان اتّهام بلانكا غير المباشر له صائباً: فقد تحوّل ماريو إلى موظّف بيروقراطي، ظنَّ أن زواجه يشبه الحصول على وظيفة ثابتة مثل وظيفة الرسّام الهندسي التي يشغلها في المجلس، وشيئاً فشيئاً أخذ يراكم الخبرة، واعتاد الروتين، وسنوات العمل. لم تذهب بلانكا مطلقاً لمقابلته في المكتب، ولا أبدت اهتمامها بالتعرّف على أيٍّ من زملائه. تعلّم ماريو كبح إغواء حكي القصص الصغيرة التي تحدث له في العمل، والمشاكل مع الرؤساء، أو مؤامرات التنافس التافهة على السلّم الوظيفي.

فحين يبدأ في حكي شيء لها ينتبه سريعاً إلى أن بلانكا شاردة، أو ما هو أسوأ، أنها تهزّ رأسها وتبتسم دون أن تعيره الكثير من الاهتمام، وحينئذٍ يخاف أن يبدو لها مملّاً أو مبتذلاً، فيبحث عن موضوع آخر، أو يسألها عمّا فعلته هي طوال الصباح ومَن قابلت.

لكن بلانكا لم تقدّم مطلقاً تفاصيل دقيقة عن حياتها الواقعية، وتقريباً

في كلّ ما قالته له عن نفسها ومشاعرها ورغباتها، في الأشياء التي أخبرته بها عن ماضيها، ظلَّ هناك جزءٌ ضبابيّ، مناطق غامضة لم تكشفها، ولم يجرؤ ماريو دائماً على السؤال عنها.

كان الأمر كذلك منذ البداية، منذ مواعداتهما الأولى، ولم يجهل ماريو أنّ الغموض المحيط بحياة بلانكا وتصرّفاتها -شأنه شأن الرغبة الجسدية- بات محفّزاً فعّالاً في التبلور السريع لحبّهما. وكلّما رغب فيها أكثر رغب أيضاً في معرفة المزيد عنها، لكن لم يفلح مطلقاً في إشباع أيٍّ من رغباته تماماً، مما جعلها أكثر إلحاحاً بالنسبة له، فقد بدأ يستكشف -لأول مرة في حياته وفي سن متأخرة ودون خبرة- اضطرابات الحبّ وتأثيره المُنوّم.

ذهب للبحث عنها ولم يجدها، واستسلم بعد ساعات من التجوال حول منزل بلانكا، وحينما عاد محزوناً إلى منزله فوجئ بوجودها في انتظاره عند البوّابة. لم يعرف ما الذي دفعها للبحث عنه، ولم يتوصّل إلى فهم سبب هروبها منه مرّاتٍ أخرى. سقطت مريضةً بالاكتئاب وفقر الدم، من الاضطراب المُرعب لحياتها اليومية، وظلَّ ماريو -الذي كان حينذاك لا يزال صديقاً خدوماً ومُحبّاً في صمت- يرعاها ويساعدها بمهاراته الإدارية على حلّ كارثة أوراقها مع الضمان الاجتماعي، نجح في جعلهم يعيدون توصيل التيار الكهربي إليها، الذي قطعوه عنها ذات يوم لعدم السداد، وإن لم يكن دون سابق إنذار، كما ادّعت هي: فبين كومة من الصحف والجرائد القديمة التي لم تخلُ أيضاً من قطعة ملابس داخلية متسخة، وجد ماريو رسائل إنذارات الدفع التي أرسلتها شركة الكهرباء غير مفتوحة.

شيئاً فشيئاً، وبما يشبه التأنّي، صار لا غنى عنه بالنسبة لها. فحينما اشتدّ عليها المرض وكانت واهنة وهشّة جداً لدرجة أنها بمشقّة تستطيع النهوض

من السرير، طلب ماريو إجازة من عمله لمدة ثلاثة أيام لظروفٍ خاصة، وكرّسها بالكامل لرعايتها ولتنظيف منزلها، وهي المهمّة التي وجدها أكثر إرهاقاً مما توقّع، ولكنّها خلّفت له بعد إتمامها شعوراً رائعاً بالرضا عن النفس، على الرغم من عدم تأكّده من ملاحظة بلانكا لِكَمّ المجهود الذي بذله. اشترى منظّفات للأطباق والزجاج وسوائل تلميع ومُطهّرات ومماسح وبدائل للمكنسة وفوطاً للتنظيف ومناشف للمطبخ، عاد في ظهيرة أحد الأيام بسيارته محمّلة من قسم المطبخ والأدوات المنزلية من سلسلة محال پريكا. فقد فَهِم أن بلانكا تربّت محاطةً بالخدم، فنشأت على افتراض أن أمر أعمال المنزل موكل إلى أشخاصٍ آخرين، و تخيّل -بما لا يخلو من استياء رجل غيور- أن نارانخو قذر لا يمكن تقويمه، سواءٌ في ما يتعلّق بنظافته الشخصية أم في عاداته كرسّام.

من المحتمل أنهما جين تعارفا لم تكن بلانكا قد أعدّت وجبة عادية منذ شهور «كما شاء الربّ»، قالها ماريو مُردّداً تعبير والدته، التي يتحدّث إليها عبر الهاتف مرّتين أو ثلاثاً أسبوعياً، مستمعاً إلى صوتها الذي يزداد شيخوخةً مرّةً بعد مرّة وكأنه يأتي من مكان قَصِيّ ليغرقه في الشعور بالذنب وبالحنان. تُعدّ أطباق والدته أفضل الأطباق التي تعلّم ماريو طهيها، والتي بدأ إعدادها لبلانكا، شاعِراً بالرضا لكونه رجلاً مجتهداً وحاذقاً، وهو ما كاد يستحيل نشوة حميمية حين تناولت بشهيّة -بعد تردّدها الشديد في البداية- طبق العدس أو الأرز بالدجاج، وأخبرته أنها لم تتذوّق شيئاً شهياً كهذا قطّ.

اعتاد أن يعيش لأجلها، أن يكيّف مواعيده وفقاً لاحتياجات بلانكا وأهوائها المفاجئة واحتداداتها، مستمتعاً بسعادة خفيّة وشبه مُختلَسة ترتكز على مجرّد وجود بلانكا، وتختلّ باستمرار إثر نوبات اليأس أو

الخوف. يرنّ جرس الهاتف فيخشى أن تكون المكالمة من نارانخو، يدقّ الباب فيذهب لفتحه (منشّفاً يديه أحياناً في مريلة المطبخ) معتقداً أنه سيرى سحنة الرسّام الكريهة وجهاً لوجه، وأن وصوله سيطرده من هذا الوضع الهشّ وشديد الالتباس الذي اعتاده، أكثر من صديق ولكن ليس حبيباً، فبشخصيته الخَدومة تلك خشي أن يكون شعور بلانكا الوحيد تجاهه هو الامتنان: ففي بعض الأحيان تنظر إليه ويبدو أنها لا تراه جيّداً أو أنها ترى شخصاً آخر.

كان يخجل من رغبته الشديدة فيها، ومن التجسّس عليها باشتهاءٍ غريزي، كما ظلَّ هناك إهمالٍ من جانبها أغرقه في عذابات سرّية من الشهوة الخانقة، كالتي تعود لمراهقته الريفية القاتمة: كأن تخرج بلانكا من الدُش دون أن تُغلق باب الحمّام، فيراها عارية وبيضاء عبر البخار، طويلة ونحيفة وشهوانية في الوقت نفسه، متألقة ومثيرة، تخيّلها، مثل تلك العارضات في المجلّات، مختلفة للغاية عن خولي، بجسدها المكتنز والصغير الذي لم يبقَ له منه سوى ذكرى مُبهمة للغاية. في الصباح يُحضر لها كوباً من عصير البرتقال حتى فراشها، فتَهِمّ بالجلوس وهي لا تزال نصف نائمة، وبوجه مُبهج بانتفاخه الطفيف إثر النوم، بعد الليالي الأولى من نومٍ عميق متصل، فتنزلق الملاءة من فوق كتفيها لتُظهِر ثدييها المستديرين الصغيرين، اللذين يلمحهما لثانية واحدة تقريباً، لِما ينتابه من حياء يجعله يحوّل عينيه، ولأن بلانكا تعاود تغطية نفسها بالتلقائية نفسها التي أنهت بها العصير وانزلقت عائدة للنوم.

كلّما ازدادت رغبته فيها واستحوذ عليه حبّها أكثر، بات أكثر سكوناً، وصار أكثر خجلاً أمامها، وأكثر خرقاً، وخدوماً أكثر أيضاً، راغباً بكفاءة

مساعداته العملية في تعويض ما يخاله في نفسه من الافتقار إلى الجاذبية وانخفاض سقف كلّ ما لديه مقارنةً بتوقّعات بلانكا وامتيازاتها. بدا له في إحدى المرات أنها تلاحظ رغبته ومعاناته، وأنها تتأملهما بفرح أقلّ وتعاطف وتجرّد أكثر. وذات ليلة، عندما هَمَّ بالمغادرة، بعدما ظلّا يثرثران لوقتٍ متأخر جداً ويشربان الجِن تونيك -فالآن تسمح لنفسها بكأس من حينٍ إلى آخر، وتوكل إلى ماريو أمر تنظيم شربها للجِن- طلبت منه البقاء معها لوقت أطول قليلاً، أما هو فارتجف من الحماس والذعر، متخيّلاً أنه ربما يحدث الليلة ما لم يتأتَّ له من قبل. وبعد لحظة من التشكّك جلس إلى جانبها على الأريكة، وليس قبالتها، كما كان حتى ذلك الحين، وهذا الإقدام الطفيف أشعره بالدوار بعض الشيء.

«لن أستطيع أن أشكرك أبداً على كلّ ما تفعله من أجلي، لا يمكنني تعويضك مطلقاً!» - قالت له بلانكا ذلك بابتسامة جادّة، وفي جوٍّ من الثقة الحميمية التي لم يدرِ أيجب عليه الأسف لها؛ لشكّه في كونها ثقة فاترة لمن ليس في حالة حبّ.

وعلى غير توقّع سمح ماريو لنفسه بالانجراف في فورة من الطلاقة قائلاً: «لكنك عوّضتني بالفعل. فلم يستطع أحد أن يعطيني الكثير قدر ما فعلتِ أنتِ. جعلتِني أكتشف الحياة، كما لو كنت نائماً طوال هذه الفترة وقمتِ أنتِ بإيقاظي. ماذا كنت أفعل أنا حينما تعرّفت عليك؟ أعمل وأسدّد أقساط أشياء وأقرأ كتاب تاريخ إسبانيا كلّ ليلة. كنت كما النائم دون أن أدري، لولاكِ لشِختُ دون أن أستيقظ أبداً».

- أنا في كثير من الأحيان، حينما أخلد إلى النوم أفكّر في أنني أتمنّى ألّا أستيقظ مرة أخرى.

- كنت أعتقد أنك أخذتِ في التحسّن في الآونة الأخيرة.

فجأةً خارت قوى ماريو حزناً حين فكّر في أن كل جهوده لرعاية بلانكا عديمة الجدوى، وأنه لم ينجح حتى في التخفيف من يأسها ونكبتها اللذين ألمّا بها ليلة تعارفهما: ربما لا تزال تفتقد نارانخو، ولعلّها حاولت مكالمته هاتفياً في غياب ماريو، حينما يذهب إلى منزله ليلاً بعد غسل أطباق العشاء كخادمٍ خصِيّ.

اعتقد -وهو جالس بجوارها على الأريكة وتحت تأثير شرب كأسَي الجِن تونيك- أنه بدلاً من الاهتمام الزائد بكلماتها عليه أن يعانقها ويقبّلها، يقبّلها حقاً، من فمها، وليس القبلتين الرسميتين والجبانتين المعتادتين. لكنه لم يفعل ذلك، ومشى كعادته كلّ ليلة، بقدرٍ أكبر من اليأس والاشمئزاز من نفسه.

وبعد عودته إلى بيته لم يستطع النوم. لم ينم مطلقاً طوال الليل، لم ينعم بالسكينة لدقيقة واحدة لا في الظلام ولا حينما أشعل الضوء. مارس العادة السرية بشراهة ودون استشعار لأيّ متعة راغباً في استحضار ذكرى عري بلانكا العابر حتى شعر في النهاية بخجله الشديد كما كان في مراهقته. أرعبه واقع معاناته التي لا خبرة له بها ولا يستطيع مواجهتها. لِمَ يُصرّ على مواصلة رؤية بلانكا؟ لماذا يتخيّل أن البقاء معها هو الوسيلة الوحيدة الممكنة ليس للسعادة بل لمجرّد السكينة، إذا كان في الواقع، يجد نفسه بقربها في حال دائم من فقدان الأمان والكرب والندم على عدم التجرؤ على قول أو فعل ما يرغب فيه، أو لقوله أو فعله شيئاً قد يبدو لها سخيفاً أو مُبتذلاً؟

سيكون من الأفضل عدم رؤيتها مجدداً. في الثامنة صباحاً، بشعور

خادع بالخفّة والصحو، ناجم عن قلة النوم، وصل ماريو إلى المكتب قبل الجميع، واستقرّ أمام لوحة الرسم الخاصة به عازماً على استعادة حكمته ومكرّساً كلّ طاقات إرادته، وما أكثرها، لنسيان بلانكا، للتخلّص من سمومها، قالها لنفسه مستخدماً عبارة لم تكن جزءاً من مفرداته حتى وقت قصير جداً، وهو ما ذكّره على نحوٍ بغيض بالكوكايين وبالطائش الزائف نارانخو (يكيل له الصفات كما لو أنها أسلحة مُشهرة وتعويذات تمنع عودته إلى حياة بلانكا).

صمد أربعة أيام كاملة دون أن يحادثها، بعد ذلك بسنوات، في أحلك ساعات غيرته واستسلامه أعاد النظر -بشيء من الدهشة المشوبة بالسخرية- في حقيقة أن الابتعاد عنها لم يكن صعباً للغاية، وأنه ربما لم يحبّها حينئذٍ كما تصوّر هو نفسه. في الواقع لم يكن هو من بادر بلقائها من جديد. ففي أحد الصباحات في تمام العاشرة، حال عودته بعد شرب القهوة، اقترب منه زميلٌ عبر الردهة المؤدية إلى مكتبه، وقال له (غامزاً بطريقةٍ تأخّر ماريو في فهم ما تعنيه): «يا لها من وقاحة ترك النساء ينتظرن طويلاً يا لوبِث!».

دفع الباب فوجد بلانكا واقفة بجانب لوحة الرسم الخاصة به، وحينما رأته اقتربت منه كما لم تفعل من قبل، كما لو أنهما بالفعل عاشقان، ذهبت إليه وأمسكت وجهه حتى لا يطبع قبلتين على وجنتيها وقبّلته على شفتيه، وبدا لماريو أن مذاق قبلتها في فمه أكثر لذة، ذلك لِمَا استشعره من كبرياء وهي تقبّله بهذه الطريقة أمام زملائه في المكتب.

الفصل التاسع

الآن أتت إليه المرأة التي لم تكن بلانكا عبر الردهة في قميص بلانكا الأخضر الحريري وبنطالها الجينز الضيّق، تمشي بإيقاع ليس بالضبط إيقاع خطوات بلانكا، رغم ارتدائها لحذائها ذي الكعب العالي، أو لحذاء منخفض مطابق لحذائها وكاشف عن الشكل الدقيق لمشط قدمها. الآن يسمع ماريو خطواتها في البيت ويشعر أن لها وَقعاً آخر، في صمت أكثر كثافة من أسوأ لحظات صمت بلانكا، وأشدّها ألماً، تلك التي لم يفلح مطلقاً كلّ حنان ماريو وتفانيه في اختراقها. لكنّه الآن صمتٌ آخر، اعتاد تمييزه برهافة فطنته وحواسه نفسها التي سمحت له بمعرفة أن المرأة التي تجلس بجواره وترتدي ملابس بلانكا وتتحدّث مثلها لم تكن هي -رغم محاولاتها تزييف الأمر بصورة مثالية- وأن بلانكا هجرته، مثلما خَشي دوماً أن يحدث.

لم يُصِبه الجنون: لكن عدم وجود مَن يخبره بالشكوك الخطيرة التي تساوره عن أن المرأة التي تعيش معه لم تعد بلانكا أغرقه في وحدةٍ مَرضيّة لصاحب سرٍّ دفين. قد يدحض أيّ صديق شكوكه: لكنه أدرك الآن أيضاً أنه فقد أصدقاءه خلال السنوات التي قضاها مع بلانكا، لأنهم عادةً ما بدَوا

لبلانكا ثقلاء الظلّ أو سوقيّين، وهو أيضاً، وبانقياد جبان، افتقر إلى شجاعة الحفاظ عليهم تماماً كما لم يحافظ على عاداته وذوقه الشخصي، وكلّ ذلك ليتظاهر بما ليس فيه، ليرتقي إلى مستوى المرأة التي لم تستطع أن تحبّه رغم محاولاتها الصادقة يوماً ما. قبل أيام من مغادرتها، بعدما رأى ماريو كلّ شيء بوضوح تام ولا سبيل لإصلاحه، كما لو أنه حدث بالفعل، ذهب للبحث عنها في مصرف التوفير، وافتعل جوّاً من التلقائية ليسأل بلانكا عما يعجبها في أُونِّسيمو، ذلك المدّعي البيِّن الذي اكتشف كونها دون أدنى شكّ فريسةً مضمونة، والذي يُطلق على أكوام الطوب وكتل الكابلات المتناثرة أعمالاً فنية، بصحبة لافتات بالبالنسية(*) والإنكليزية، تحت إشرافه الاستبدادي في صالة العرض.

- مسكين يا صغيري، لا أستطيع مطالبتك بفهم ذلك!

قالت له بلانكا ذلك وهي تقف أمامه، ثم داعبته بربتة سريعة كانت بلا شكّ من باب التلطّف والشفقة، ولكن بالنسبة إليه فقد غمرته بالحنان.

- الوجود مع لويس يشبه التطلّع إلى منحدر ريبيكا بصحبة لورانس أوليڤييه(**)... أنت مثل بيتي. معك أنا دوماً كأنني على مقعد في حديقة، مثل الأحبّة القدامى. هنا الاختلاف.

في الأيام الخوالي كانت تمتنّ لاتّزان شخصيته، للاستقرار الواضح الذي تفتقر إليه، والذي قدّم لها مساعدة كبيرة للخروج من البئر التي وجدها

(*) البالنسية: يعتبرها علماء اللغة إحدى لهجات اللغة الكتالانية (ضمن مجموعة اللهجات الكتالانية الغربية). [م]

(**) فيلم ريبيكا (Rebecca): فيلم أميركي يعود لسنة 1940 ومقتبس من رواية إنكليزية تحمل الاسم نفسه. Laurence Olivier (1907-1989): مخرج إنكليزي ويُعدّ من أشهر الممثّلين في القرن العشرين وهو بطل فيلم ريبيكا. [م]

فيها حينما التقيا. كانت تقول له: «أنت من تبقيني ثابتة، أنت ركيزتي على الأرض!».

الآن انقلبت ضدّه تلك السكينة وتلك القوة التي لطالما قدّرتها سابقاً: لم تعد تريد البيت الذي قدّمه لها بعد الآن، ولا العيش في السلام الذي نسجه من أجلها، من أجل الدفاع عنها -كما اعتادت القول بنفسها- من أسوأ ما في روحها. عادت الآن إلى المقارنات مع الأفلام وإلى الاقتباسات الأدبية، كانت تريد التطلّع إلى الهاوية، كما لو أنها تعرف ما تعنيه تلك الكلمة حقاً، كما لو أنها لم تتمتّع دوماً بالحماية القصوى لأموال عائلتها وصلابة طبقتها الاجتماعية.

أمام بلانكا في صالة العرض -منحها أُونِّسيمو أكبر فرحة في حياتها باختيارها مُشرِفة، وكما أكّد لها هو بنفسه أن الحدّ الفاصل بين الفن والحياة قد مُحي، وأن في عروضه الأدائية لم تعد هناك مسافة بين المُشرِف والفنّان أو بين المُرشِد والجمهور- فهم ماريو أنه فقد كلّ شيء، رغم عدم تذكّره في تلك اللحظة للفيلم الذي حدّثته عنه بلانكا، والذي يبدو من اسمه أنه أحد أفلام الأبيض والأسود المترجمة التي تُعرض في أوقات غير مناسبة على شاشة التلفزيون: لعدّة مرات حينما كان يسألها أن يذهبا للفراش، أجابته بالرفض، لأنها تودّ مشاهدة فيلم ياباني أو فرنسي مترجم، فيذهب هو للفراش، ويحسب في الظلام الأيام التي لم يذهبا فيها إلى الفراش في الوقت نفسه، فيروح في النوم سامعاً -كما لو أنها بعيدة جداً، على الجانب الآخر من الجدار المصنوع من الجصّ الذي يفصل غرفة النوم عن غرفة المعيشة- موسيقا الفيلم الذي تشاهده بحماسة لم تُولِها مطلقاً للأشياء الواقعية، الكلمات المنطوقة بلغة لا يفهمها وتستطيع هي أن تكرّر بها اقتباسات طويلة أمام أصدقائها.

لقد نجا من فترات عصيبة متتالية بين الإرادة والنزعات القدرية، بين الشجاعة المختلَقة والحزن المقيم. الآن عندما يعود في الكثير من الأيام في الثالثة وخمس دقائق أو الثالثة وعشر دقائق، لا يجد بلانكا في انتظاره، لأنها -وفقاً لما قالته- قد أبقتها التزامات عملها في صالة العروض، التي لم تتجسّد فقط -كما أكّدت بكلمات استعارتها من أُونِّسيمو- في مراقبةٍ غير فعّالة للمكان أو مجرّد تمثيل لتفويض قمعي من قِبل عيون السلطة. لكنها في واقع الأمر تترك له تذكرة اعتذار إن لم تنوِ الرجوع للبيت وقت الغداء، تكتبها بخطّ يدٍ لطالما أعجبه ويعود لمن ارتاد المدارس الخاصة، كما تحرص على أن تترك له بعض الطعام الذي عليه تسخينه فقط. في تلك اللحظات تخفّ إدانة ماريو أو يتخلّص من خوفه، ويظلّ طوال فترة ما بعد الظهيرة في انتظار بلانكا، أو يستجمع شجاعته ويذهب للبحث عنها في المركز الثقافي لمصرف التوفير، متغلّباً ليس فقط على إحجامه عن لقاء أُونِسيمو، ولكن أيضاً على شيء اعترف به لنفسه بصعوبة بالغة، شعور ممزَّق بالحرج الشديد النابع من سماعه للتحذلق الذي تتحدّث به بلانكا، ومن الطريقة التي يسمعها تستخدم بها تعبيرات فرنسية أو إنكليزية استخدمها أُونِّسيمو قبلها، أو كرّرها في إحدى المقابلات.

كانت بلانكا أخرى، وظلّ هو فقط: زوجها، من لاحظ محاكاتها له وفرط توتّرها واحمرار وجنتيها الطفيف حالما يُثني عليها أُونِّسيمو. وفي أحد الأيام، بينما كان يتطلّع إليها صامتاً على الجانب الآخر من الطاولة التي يترأّسها فنان بالنسيا، والممتلئة بأناس يدخّنون ويتحدّثون بصوتٍ عالٍ، أخذ يفكّر: «لو أنك أحببتني أنا لما تركتك تهدرين كرامتك قطّ».

الفصل العاشر

كانت هذه نهاية كلّ شيء، تذكّر ماريو بعد ذلك، حين أراد تثبيت كلّ التفاصيل في وعيه وتتبّع كلّ إشارة صغرى وملموسة تخصّ هروب بلانكا وظهور المجهولة في بيته. كان الغداء الختامي للمعرض أو العرض الأدائي، أو أيّاً كان الاسم الذي وضعوه له واستمرّ شهراً في الصالونات الثقافية لمصرف التوفير كما لو أنها منطقة إشغالات، وحضرها بعض الفنّانين والأدباء والصحفيين المحلّيّين، إضافةً إلى رئيس القطاع الثقافي للمصرف، الذي ربما نظراً لتمثيله للمؤسسة الداعمة لهذه المأدبة شعر بأحقّيته في طلب كركند بحرية عملاقة، ومع ذلك فقد التهمها بالسرعة نفسها والضوضاء التي تناول بها لويس أُونِّسيمو غداءه.

وحيداً وهادئاً في جلسته أمام بلانكا -التي تشرب أكثر مما يجب وتولي اهتماماً فائقاً إلى كلمات أُونِّسيمو، وليس إلى ما يُحدِثه مضغه من ضوضاء- نجح في احتواء رغبته في البكاء أو المغادرة مذكّراً نفسه بأن كرامته لم تُمسّ، أو صبره على الأقل، وأنه في اليوم التالي حينما يكون أُونِّسيمو قد رحل، فإنه سيتمكّن من الاضطلاع بمهمّته المعهودة والمحبّبة للغاية لاستعادة بلانكا بسلاسة قوة حبّه غير المشروط. لكنه أدرك أيضاً،

بغريزةٍ تشوّشها الكآبة، أنه ربما لم تعد لديه الطاقة اللازمة لمواصلة حبّها، ومواصلة احتماله لحفلات غداء كتلك، مستمعاً إلى مصطلحات فكرية لا يفهمها وأسماء أطباق وماركات نبيذ تثير داخله عداءً غاضباً وسرّياً بات من الصعب عليه استثناء بلانكا منه.

في اليوم التالي، وبسبب سوء فهم مزعج جداً جعله يُضيّع ساعة تقريباً في مكتب شؤون العاملين، عاد إلى البيت قرابة الثالثة والنصف، لم يزل غاضباً، وملهوفاً، وخائفاً من انتظار بلانكا له بعد إعداد المائدة. فتح الباب ولم يسمع خُطا بلانكا في الردهة، ولا موسيقا التلفزيون أيضاً، وحينما وصل إلى غرفة المعيشة تلقّى الدليل على عدم وجودها كضربة على مؤخرة رأسه. لم تترك له الطعام جاهزاً، كما لم تكلّف نفسها حتى -كما تفعل دائماً- بوضع مفرش المائدة. في غرفة المعيشة لشقّته التي حصل عليها من الإسكان المحميّ، وبين أثاثه المعهود، وأمام التلفزيون المغلق الذي يعكس صورته، شعر ماريو لوپث أن العالم ينتهي بالنسبة إليه، وأن تلك الكارثة الصامتة والمحسومة، التي تخيّلها وتوقّعها عدّة مرّات، بات لها ذلك الوقع المروِّع لما هو جديد كليّاً. هَجْر بلانكا له يعني: المكوث محدّقاً كالأبله في مفرش الكروشيه الذي تمقته، وسماع خُطا أو صوت شخص ما في الطابق الأعلى بلا هدف، والشعور بأن كل هذه الأشياء مجتمعةً تمثّل التجسيد الماحق لمحنته.

في الخزانة الجدارية بغرفة النوم تأكّد من عدم وجود بعض ملابس بلانكا، فضلاً عن حقيبة سفرها السوداء. أراد التفكير في أنها اضطرّت للخروج لسبب طارئ، مرض أمها المفاجئ، أو استدعائها لإجراء مقابلة عمل لإحدى تلك الوظائف التي لطالما تقدّمت لها ثم تركتها.

ذهب ماريو إلى المطبخ وفتح علبة بيرة. وبينما كان يقطع شريحة مرتديلا لاحظ أنه يميل أكثر من المعتاد على حافة الطاولة، وبعد لحظة أجهش بالبكاء. أن يعيش لا لبقية حياته، ولا حتى لباقي النهار بأكمله، بل فقط للخمس أو العشر دقائق التالية، بدا له إنجازاً مستحيلاً. تماسك وذهب إلى المكتب باحثاً عن آثار هروبها. لم يجد الراديو الصغير، الذي تقضي بلانكا فترات بعد الظهيرة بأكملها مستمعةً إلى موسيقاه الكلاسيكية، في موضعه على الرفّ. وباندفاعٍ غاضب جلب له راحة عابرة وشعوراً طفولياً بالانتقام، مزّق الملصق الإعلاني لمعرض لويس أُونِّسيمو من على الحائط. كما خفق قلبه لمرأى ورقة مُفكّرة مجعّدة وملقاة في سلّة المهملات. وحين بسطها رأى أن بلانكا كتبت «عزيزي ماريو»، لكنها لم تكمل، فكّر الآن أنها ربما أحجمت خوفاً من زيادة تشتيتها أو من أن يفاجئها لحظة الهروب.

تحلّى بالشجاعة واتّصل بصالة العروض الخاصة بمصرف التوفير وسأل عن أُونِّسيمو. فأخبره البوّاب -الذي يعرف ماريو- أن أُونِّسيمو قد رحل إلى مدريد في قطار «التالغو» في الثانية والنصف، وهو القطار السريع الكريه نفسه الذي تحب بلانكا أن تركبه دوماً، والذي يقلّها إلى معارض الملكة صوفيا والموائد المستديرة لمقرّ إقامة الطلّاب والأفلام الفرنسية في ألفاڤيل(*)، وكلّ الأشياء الأخرى التي تثير حماسها وتجعل ماريو مستبعداً. أغلق الخط دون أن يجرؤ على سؤال البوّاب ما إن كان قد صادف بلانكا. استلقى بعد ذلك على الأريكة دافناً وجهه في قماش

(*) ألفاڤيل (Alphaville): دور سينما بدأت في عرض أفلامها سنة 1977، وعُرِفَت بريادتها في عرض الأفلام بنسختها الأصلية في مدريد. [م]

الوسادة وهو يبكي متلمّساً عبوة المناديل الورقية ليمسح مُخاطه، ولاحظ، بصعوبة، تغيّر الضوء وزوال النهار.

استيقظ في الظلام على صوت مفتاح في الباب وعلى إضاءة نور الردهة. أتت المرأة التي لم يكن يعرف حتى الآن أنها ليست بلانكا إلى غرفة الطعام بخُطا تشبه خطاها التي ظنّها ماريو كذلك في بادئ الأمر: بل أيضاً بدا له في الإضاءة الخافتة للغرفة أنّ شعرها كما لو أنه هو شعرها فعلاً وشكل وجهها والابتسامة الوردية الوجيزة على شفتيها المكتنزتين اللتين لا تزالان، لسعادته، تحتفظان بامتلاء طفيف يُضفي عليهما طابعاً طفولياً. أتت إليه وعليها آثار التعب، رغم ابتسامها، وكأنّ شيئاً لم يحدث، وسألته بنبرة تشوبها السخرية عما يفعله في الظلام، فتأخّر في الردّ، لأن البكاء والنوم كانا بمنزلة مخدّرين لوعيه، إلى حدٍّ ما. نهض واحتضنها وبينما كان يحتوي جسدها الطويل الغضّ (فهي أطول منه حتى في الحذاء المنخفض) امتلأت عيناه بالدموع مجدّداً وفكّر، بعاطفة مطلقة وتأدّب لا إرادي، أنه غفر لها كل شيء، وأنه لن يفكّر في طرح أي سؤال عليها أو في توبيخها على أيّ شيء.

حينئذٍ، وبنظرة جانبية، لاحظ المؤشّر الأول: لم يكن متأكّداً من أن الحقيبة التي أتت بها بلانكا هي نفسها الحقيبة الناقصة من الخزانة. لكن ليس من السهل تمييز حقيبة سفر من أخرى. فالعالم بأسره يخلط بينها على السير المتحرّك في المطارات. قبّلته بلانكا من فمه منحنية عليه قليلاً، وفاتحةً شفتيها بمقدار ملليمتر أكثر من المعتاد، ولاحظ ماريو، أو تذكّر لاحقاً ملاحظته، أن أنفاسها لم يتخلّلها أثرٌ للنيكوتين أو للنبيذ الأحمر، وأن شعرها لم يكن له الرائحة نفسها تماماً.

لكن لم يعد بوسعه أن يظلّ دائماً متأهّباً، ومترصّداً، وعاكفاً على دراسة المرأة التي لم تعد بلانكا بشكل تدريجي، التي صارت أكثر غرابة تماماً مثلما نجحت في الوصول إلى التطابق الأمثل معها، في حين أن بلانكا الأخرى، الحقيقية، التي تخصّه، لا بدّ أنها تعيش في مدريد أو بالنسيا الحياة التي طالما رغبت فيها ومنعها ماريو -وفقاً لها- من بلوغها.

تخاذل، وعلم أنه سينقاد للوضع الجديد، وأن الجزء الخامل المتأقلم من شخصيته الذي لم تقبله بلانكا مطلقاً هو ما دفعه برِقّة ولطف لتقبُّل ظهور تلك المحتالة. أثناء غسله الأطباق في المطبخ، بعد العشاء، سمعها تقترب عبر الردهة بتلك المشية المماثلة لمشية بلانكا، وحينما توقّفت خطاها لم يستدر ولم يرفع وجهه عن الحوض، فهو يعلم أن المرأة التي لم تكن بلانكا تقف عند العتبة، على وشك الاتكاء على إطار الباب بحركة متكاسلة أو بفيض من الألفة لم يعهد مثلها من بلانكا الحقيقية قطّ.

ظلَّ يحدّق في عينيها قبل أن يقبّلها، فشرعت في الضحك طالبةً منه ألّا ينظر إليها بهذه الطريقة، لأن حدّة نظرة ماريو تخيفها، وشكّل هذا برهاناً آخر لا جدال فيه على احتيالها، لأن بلانكا زوجته، مَن أحبّها، والتي بالتأكيد تركته لتذهب مع آخر، لم تُشِر قطّ إلى أنها تتأثّر بعينيه.

أراد أن ينصب لها الفخاخ: يتصل من المكتب، ويظلّ صامتاً حين يسمع صوتها، محاولاً اكتشاف نبرة أو لهجة لا تخصّ بلانكا.

عاد الراديو إلى موقعه على أحد رفوف المكتبة، في الغرفة التي لم تعد تُطلق عليها بلانكا الاستديو، لكن ماريو كاد يقسم إنّ الراديو أيضاً رغم التشابه الشديد، لم يعد هو نفسه، ويئس بأثر رجعي من قلة انتباهه لهذه الأشياء، ولتشوّش العاشق والقروي الذي عاش فيه. على أي حال، صارت

بلانكا قلّما تستمع إلى الموسيقا الكلاسيكية، ولم تعد تغلق على نفسها بالمفتاح في الاستديو.

ومع ذلك، ورغم تجسّسه ونوبات هوسه، صار ماريو، دون أن يلاحظ ذلك، أقلّ تعاسة، وذات ليلة تقبّل أن بلانكا لن تعود، وأنه لم يعد ينزعج من الحياة مع تلك المرأة الأخرى التي تشبهها كثيراً. كان مستلقياً في غرفة نومه، ليقرأ قليلاً، أو محاولاً ذلك، لأن مراقبته لم تنقطع مطلقاً، حينئذٍ انفتح الباب وأتت نحوه المرأة التي لم تكن بلانكا، مغلقةً الباب ببطء خلفها، واستلقت إلى جانبه ناظرةً إليه بعينيها اللتين لم تكونا عينَي بلانكا، وعلى العكس منها لم تطلب منه أن يُطفئ الضوء: كان بإمكانه رؤية كل تفاصيل جسد بلانكا العاري كما يريد، تلك التي يعرفها عن ظهر قلب، والتي فاجأته أو حيّرته، لم يكن يعرف ما إن عاد ذلك لكونها تخصّ امرأة أخرى، أم لأنه لم يتوقّف أمامها مطلقاً.

حينئذٍ، استدار على جانبه ليعانقها بشكلٍ أفضل، اقترب أكثر حتى استشعر أنفاسها، ورأى في مقلتيها وجهه الرجولي الملهوف، أغمض عينيه وأغلق جفنيه بإحكام خوفاً من تلاشي السراب إن فتحهما، لأنه تأكّد الآن بعينيه المغمضتين والمبلّلتين بالدموع، أن تلك المرأة التي تحتضنه لم تكن بلانكا: فبلانكا لم تتنفّس ولم تئنّ بهذا الشكل قطّ، بلانكا، الأخرى، الحقيقية، شبه المتطابقة، التي لم يعد يهتمّ بفقدها، والتي لن يجدها إن فتح عينيه، لم تضحك هكذا قطّ بين ذراعيه، ولا همست في أذنه بالعبارات الخليعة والحلوة التي قالتها له المجهولة.

كلمة المترجمة

بدايةً، أودّ أن أشكر المترجم الكبير أحمد حسّان، على ترشيحي لترجمة هذه الرواية، كان ذلك في بدايات أزمة جائحة كورونا، وقد ساعدتني الرواية، والانغماس في عملية الترجمة والتوحّد مع شخوصها وما يدور في فلكهم، على تخفيف وطأة تلك الفترة العصيبة، حين تلاحمت الأسئلة الوجودية الفردية مع حيرة العالم من أمره، قبل توصّل العِلم للقاحات واقية، في هذه الفترة ربما أعاد كثيرٌ منا اكتشاف جدوى الفن والأدب والعلاقات الإنسانية في تشكيل الوجدان ونجاة البشرية من أمراضها الروحية والجسدية على حدٍّ سواء.

بعد ذلك بشهور سافرت إلى إسبانيا، وخلال فعاليات معرض الكتاب بمدريد في صيف 2021، تعرّفت على الكاتب الذي رافقني شهوراً عصيبة في ندوة لمناقشة أحدث كتبه. وقد أخبرني أنه يَكِنّ لرواية «في غياب بلانكا» مَعزّة خاصة، وترك لي بريده الإلكتروني إن احتجت إلى التواصل معه طلباً لأيّ توضيح. وقد راسلته فعلاً بعد إنجاز الترجمة ليكتب كلمة خاصّة للترجمة العربية، وها هي ذي في مقدّمة الكتاب، بين يدي القارئ.

أخيراً، لا يسعني سوى شكر أهلي وأصدقائي الذين شاركوني بالدعم النفسي، وبالردّ على استشاراتي وتقديم اقتراحات سديدة خلال المراجعة وأخصّ منهم (أبجدياً مع حفظ الألقاب): أحمد حسّان، أريج جمال، آية طنطاوي، إبراهيم عادل، غادة خليفة، فاطمة جمال، محمد الفولي، محمد مهدي، محمد هاني، مصعب السيد، ياسر عبد اللطيف. وفريق دار النشر، على المهنيّة والدأب في إخراج الرواية بأفضل صورة ممكنة لقارئها العربي.

أسماء جمال عبد الناصر

ميديين - كولومبيا

2022 /7 /31

أنطونيو مونيوث مولينا

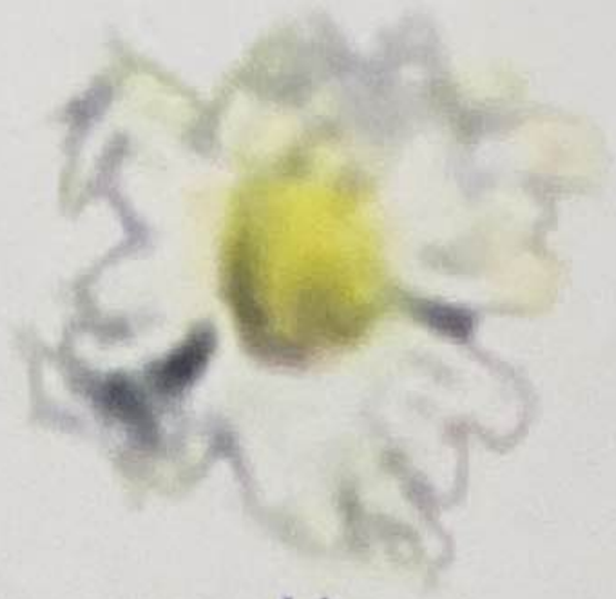
روائي إسباني من مواليد 1956. درس تاريخ الفن في جامعة غرناطة، والصحافة في مدريد. حاز على عدة جوائز محلّيّة وعالمية أبرزها جائزة «أمير أستورياس» للأدب عام 2013، وجائزة «بلانيتا» عام 1991. يتمتّع مولينا بعضوية الأكاديمية الملكية الإسبانية المسؤولة عن استقرار اللغة منذ عام 1995.

من أبرز رواياته: «طوبى له»، «الشتاء في لشبونة»، «الفارس البولندي»، «في غياب بلانكا»، «كظلٍّ يرحل».

أسماء جمال عبد الناصر

كاتبة ومترجمة مصرية من مواليد 1988. درست اللغة والآداب الناطقة بالإسبانية في كلية الآداب جامعة القاهرة، وكلية اللغويات بجامعة سلامنكا. تعمل الآن على أطروحة الدكتوراه في جامعة أنتيوكيا. أحد أعضاء فريق التحرير بموقع الكتابة الثقافي، وتنشر نصوصها وترجماتها في العديد من المواقع والمجلّات الورقية والإلكترونية العربية. شاركت في كتابة المجموعة القصصية «حتى فساتيني»، وفي ترجمة الأنطولوجيا الشعرية «بالمختصر المفيد – خوسيه إيميليو باتشيكو».

تصميم الغلاف نجاح طاهر



يعود ماريو، الرسّام الهندسي، ذات يوم إلى شقّته، في مدينة خايين، التي يتقاسمها منذ ستّ سنوات مع زوجته بلانكا، فيجد أن امرأةً أخرى تكاد تطابقها في الملامح والإيماءات شغلت مكانها، يبدأ بتقليب الذكريات والتمحيص في الدلائل محاولاً استكشاف أسباب غيابها، أو استحضارها مجدّداً بطريقة ما. هل رحلت "بلانكا" حقاً؟ وما الذي تبحث عنه في العوالم التي تغرق فيها ويحرّم على "ماريو" دخولها؟

في هذه الرواية المكثّفة والشيّقة يخوض الكاتب الإسباني "أنطونيو مونيوث مولينا" عميقاً في علاقة رجلٍ وامرأة تقاطعت مصائرهما قبل أن يبدأ عالمهما بالاهتزاز بتأثير الاختلافات ورتابة الحياة. فمولينا يضيء على تعقيد العلاقات العاطفية، والصراعات التي يعيشها أزواجٌ يحبّون في شركائهم اليوم ما قد يكرهونه فيهم غداً...


ISBN 978-9933-641-91-7


دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

